فضيلة العلامة الكبير

محمد أمين شيخو

قدس الله سره

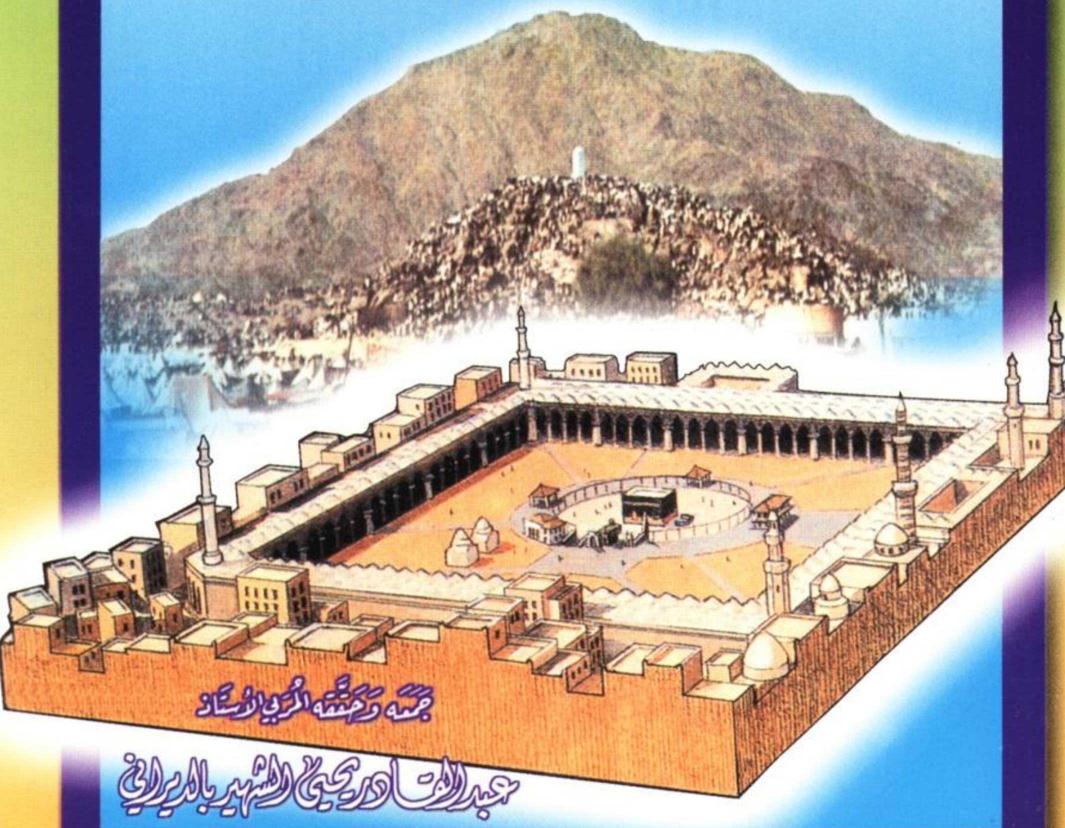
المدارس العليا للتقوى

درر الأحكام في شرح أركان الإسلام

((٥))

الحجّ

خامس المدارس العليا للتقوى



جمعه وحققه المربي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني



المدارس العليا للتقوى

درر الأحكام في شرح أركان الإسلام

(٥)

الحج

خامس المدارس العليا للتقوى

جمعه وحققه المربي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

ابن محدث دمشق المرحوم الشيخ محمد الديراني

فهرس

الحـــــج

خامس المدارس العليا للتقوى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله مانع رسله؛ جاعلهم أئمةً يهدون بالخيرات بأمره، ربُّ العالمين صاحب الإحسان والخير العميم في تسييره الكامل لكافة عباده، بل ولكافة خلْقه بأوامره المبصرة.

ما أراد أرحم الراحمين لعباده مفارقة الأهل والخلان في فرضه الحج إلى وادٍ لا ماء فيه ولا شجر بأعماق الصحاري والهضاب ومواجهة الصعاب إلاَّ ليدخلوا جنَّات النعيم فيغدون عالمين وبه تعالى عارفين.

طلاَّب الدنيا يهجرون أوطانهم ويقاسون آلام الفرقة وشظف العيش، عيش الغربة والكربة ليحصلوا على شهاداتِ متاعٍ زائلٍ منقضٍ وما فرضها عليهم أحد إلاَّ حبُّهم بالتفوُّق وتأمين المعاش والقيم الاجتماعية.

جعل الله الكعبة بعيدة عن زينة الدنيا فهي أقرب للوجهة للآخرة وإليه جلَّ عُلاه، وما هذه القلائد والمناسك والأركان إلاَّ تعبير عن حقائق سامية لا يفقهها المنغمس بأوحال الدنيا، الغارق بدنيء شهواتها، ناسياً من إليه مرجعه ومآله جلَّ جلالُه.

رُبَّ قائل مستغرب مستعجب ما ولَّى هؤلاء الملايين تلك القبلة من الحجر في صحارٍ نائية!...

ما الحجُّ ولِمَ يهدف!...

ما هذه الملابس، بل لا ملابس يرتدونها؟...

ما هذا الطواف والدوَران حول بيتٍ مبني من الحجارة السوداء ذي الشكل المكعب؟... تارةً يمشون وتارةً يركضون، فلِمَ؟...

ثم يصلون لأحد أركانه المركوز فيها ذلك الحجر الأسود فيقبِّلوه ويبكون، وبالدعاء يجأرون؟!... يكرِّرون ذلك مراراً في كل شوطٍ من دَوَرانهم، فلِمَ ذلك يفعلون؟...

ومن ثمَّ بين الصفا والمروة يركضون ذهاباً وإياباً تارةً يرملون وأخرى يمشون فيرملون، فلماذا؟... أشبال ونساء ورجال وعاجزون، من الموت قريبون؟...

عجباً تراهم جمعاً ينفرون ليلتقوا في عَرَفَهْ، وما أدراك ما عَرَفَهْ: جُبيلٌ صغير حوله وعليه يلتفُّون بعد مسير نهارٍ من مكة، وعند هذا الجُبيل يجلسون ويصرخون!... ومن لا يفعل فعلهم في يومهم هذا من مكانهم هذا فلن ولمْ يَكْمُلْ حجُّهُ أبداً ولا يُقبل منه ما فعله، هكذا يقولون.

آلاف الآلاف من الكتل البشرية بعدها يهرعون لرمي الحصى على أصرحةٍ من الحجارة بزعمهم أنها إبليس وأعوانه هناك مقيدون!...

ثم للعجب أنهاراً من الدماء يُسيلون في ذبائحَ وبدونها لا حجَّ لهم ولا اعتمار، بل ولا يُقبل بديلها بمالٍ ولا فداء!...

ثم يرجعون لبيت الحجر بمسجد مكة يتشبثون بأستاره، ويقبِّلون وكأنهم مع أعزِّ الأحباب يلتقون!...

ومن ثم يرحلون باكين وللحجارة مودِّعين!... وعنهم تسمع العجب العُجاب فلا يقلِّمون ظفراً ولا يأتون غُسلاً ولا يتسامرون بحديثٍ ولا.. ولا الكثير يفعلون.

فيتَّهمنا الغرب بأننا نحن الملايين نسير خلف الملايين كهريع قطيعٍ يجمحون، أم هل على سيْر آبائهم مقلِّدون؟!...

تسألهم ما الحكمة والهدف والغاية مما به تقومون؟... تراهم لا يدرون ولا يعلمون، بل لا مُجيب إلاَّ قولهم: فرائض محدودة بأيامٍ معدودة لأماكن مخصوصة، هكذا قال آباؤهم فهم على آثارهم يهرعون، بل مجرَّد ردِّهم "أمر تعبُّدي"، بلا حكمةٍ ولا سبب هكذا قالوا أننا بذلك مأمورون، ولذلك دون تفهُّمٍ ملتزمون، فاسكت والتزم ولا تعترض فتنطرد، فلا يجوز التدخُّل بذاك المقام الذي قام به آباؤنا ونحن لهم مقلِّدون.

ربَّاه إلى متى ونحن تائهون وبالضياع سائحون..

كلاَّ.. لقد دار الزمان دورته وحُقَّ للنور بالظهور، فأشرقت شمس المعارف الكبرى تتهادى بالنور والجلال والحق والكمال فكشف الإسلامَ وسموِّه وآن لمقلِّدة العلماء بالانمحاء وللضلال بالزوال ووقعت الصاعقة الكبرى على رؤوس الجهلة الأغبياء بظهور الحكمة والضياء على لسان علاَّمتنا العربي محمد أمين شيخو (قدَّس الله سرَّه) ببيانٍ علمي أنار القلوب بنور المعرفة والفكر، والعلوم والإيضاح فبيَّن بما يقطع الجهل ويُزيل الجهالة والعمى، حقائقَ إشراقية شَفَتِ القلوبَ وفتَّحت الأذهان والعقولَ عن عظمةِ مناسك الحج وينابيعها العلوية ممَّن استناروا، وأنار بوحي محمد ﷺ خير الأنام.

فهاكم حقائق إبداعية لدررٍ عليَّةٍ غنيَّةٍ تطيب لها القلوب وتُغني الأفكار بالحِكَمِ الإلَهية السنيّة وباهر النتائج لأركان الحج الحقيقي والذي جعل من الجاهلية أنواراً تفجَّرت فأنارت العالَمين وجعلت من العمي الجاهليين صحابةً كراماً أناروا الوجود بما نالوه بالحجِّ من فوائد لا تزول. فغدوا بالإيمان، فالحج جبالٌ راسيات، رسَّخوا جذوراً عميقة في الجنَّات الخالدات ولسان حالهم يقول: الموتُ غداً تحفتنا، والرسولُ زعيم دعوتنا، قائداً يشقُّ طريقنا في كلِّ وقتٍ وحين، ونحن تحت لوائه مستشفعين بأنوار الإلَه العظيم.

تعال بنا أخي لنسير بهذه "الدرر" إلى صراطٍ مستقيم، لا تنكُّبَ عنه، لنسعد بحياةٍ مداها لا نهاية له، ولنكسب فرصة حياةٍ لم تكن حياتنا الدنيوية قبلها شيئاً مذكوراً تجاهها.

فطوبى لمن بدررِ الحجِّ استنار، طوبى له وحسن مآب.

فغداً لا ينفع الندم ولات حين مندم.. فيا خسارة المعرضين.

تقديم المربي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

الحـــــج

خامس المدارس العليا للتقوى

أما وقد تكلَّمنا في الأجزاء السابقة عن الإيمان والصلاة والزكاة والصيام، فلننتقل إلى آخر كلمة من حديث بني الإسلام على خمس وأعني بها قوله ﷺ: «**وحجُّ البيت من استطاع إليه سبيلاً**».

الغاية من الـحـج

إن الغاية من الحج كالغاية من رمضان ألا وهي نيل المؤمن التقوى، قال تعالى مبيِّناً غاية الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

فمن المؤمنين من يحصل عليها في رمضان ويزيدها في الحج لأن التقوى كالإيمان بازدياد مستمر وقد تجد الفرق شاسعاً بين مؤمن ومؤمن وبين تقي وتقي. قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى﴾[2]. وهذه الآية تبيِّن أن هنالك مؤمن تقي وآخر أتقى.

ومنهم من لا يحصل عليها في رمضان فيكون الحج مرحلة مكمِّلة لمن فاتته

[1] سورة البقرة: الآية (١٨٣).

[2] سورة الليل: الآية (١٧).

التقوى في رمضان، ومن لم ينل التقوى من صوم رمضان أو الحج فلا حقَّق الغاية لأنه لم يجدّ ويجتهد في كلتا المدرستين.

لقد بيَّن تعالى الغاية من الحج فقال: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾[1].

﴿وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[2]. ونفهم من هذه الآية الكريمة بأن الذي حصل على شهادة التقوى فلا إثم عليه إن تعجَّل أو تأخر في أيام التشريق عند رمي الجمار طالما أنه نال الغاية التي من أجلها ذهب.

[1] سورة البقرة: الآية (١٩٧).

[2] سورة البقرة: الآية (٢٠٣).

وصـــف الـــحــــــج

إن بيت الله الحرام وضِعَ كما أخبرنا تعالى بوادٍ غير ذي زرع، وفي مكان تحيط به الصحراء من جميع جهاته، ويضطر الحاج إلى قطع مسافات طويلة وسط صحراء تكاد تكون مقفرة من السكان إلا من بضع واحات متوضّعة هنا وهناك، يتزوَّد منها الحاج حاجته لتساعده على متابعة السفر.

وفي بضعة أيام يتخلَّص الحاج من العمران ليستقبل الصحراء وجهاً لوجه فالدنيا خلَّفها وراء ظهره ولم يبق أمامه ما يشغل نفسه إلا الذي هو قاصده.

إن الحاج الآن في طريق مقفرة، وكل شيء فيه يكاد يكون ساكناً إلاَّ من فحيح الأفاعي وصرير الجنادب، وعواء الأوابد، وتعْصف بين الحين والحين ظلل من الرمال تحبس الرؤيا وتكاد تسد مجاري التنفس والقافلة تسير بهدوء "**إلا من ذكر الله**" تستقبل نهاراً وتودِّع ليلاً وتودِّع ليلاً لتستقبل نهاراً.

إنها ذكريات تتناسب والغاية التي شدت إليها الرحال، وإنها ذكرى ليوم لا ريب فيه سوف تفارق فيه الحياة الدنيا، وتفارق الأهل والأحباب. كذلك فإن مناظر الحيّات والعقارب، وسماع أصواتها تذكّر الحاج بالقبر، وما يلقى فيه من أمثال تلك المخلوقات، تلك المشاهدات سوف تترك في النفس إحساساً بعدم دوام الحياة وأن لابدَّ من يومٍ ينادي فيه المنادي ألا أيها الإنسان تهيأ

للرحيل، فالأوان قد آن لمفارقة الأهل والمال والخلاَّن، هذا الإحساس يدفع الحاج لكي يشمر عن ساعد الجد ويسعى في طلب الحق.

والحقيقة كل الحقيقة فإن قلائد الحج لكي تزهد بالدنيا وما فيها من شهوات وتلقي بها من قلبك، فالقلائد هذه العمرة تُقلِّد بأعمالها حال الموت حافياً مكشوف الرأس لا تقلِّم ظفراً ولا تأتي غسلاً ولا تقتل حشرة بثياب الإحرام غير المخيطة تماماً عندها ترى النفس ذنوبها وعيوبها وتغدو نفسك مطواعاً لك في إقبالك فتتذلَّل لله وتقبِّل الحجر الأسود رامياً نفسك على أعتاب الله تائباً، عندها يقبلك.

من هذا الوصف تبدو لنا الغاية سافرة من وضع البيت الحرام في مكان بعيد، وفي وادٍ غير ذي زرع، خالياً من كل ما يشغل النفس من مفاتن الدنيا وزخرفها، لأن أعظم عقبة تحول بين الإنسان وربه، هي حب الدنيا وانشغاله بها عن الآخرة، فهي التي تسد السمع وتطمس على البصر وتجعل القلب غافلاً عن ذكر الله.. وهذه هي الحكمة من وضع البيت الحرام في جوف الصحراء وفي وادٍ غير ذي زرع.

والآن وبعد بيان الغاية من الحج ووصف الحج لِنُجِبْ من قال مادام المرء قد وصل في صيام رمضان إلى التقوى وما دامت نفسه قد أضحت في حال ترى معه الخير خيراً والشر شراً فإذا هي مستنيرة بنور ربها دوماً فماذا يفيد

الإنسان من الحج وركوب البحار ومفارقة الأهل والعيال والتعرُّض للمخاطر والأمراض، وتحمُّل المتاعب والمشاق؟ أليس هذا الخالق الرؤوف الرحيم الذي خلق هذا الإنسان وأنعم عليه بما أنعم من الخيرات بقادر على أن يمنحه ما يريد أن يمنحه إياه وهو مقيم في بلده دون أن يفرض عليه الذهاب إلى البيت الحرام حيث تقع مكة في وادٍ غير ذي زرع لا حدائق فيه ولا أشجار ولا ينابيع ولا أنهار خَلا قليل من الماء قد يكفي الحجيج أو يكاد!. وإذا نحن سلَّمنا بأن الحج فرض على القريب ذي البلد المجاور للبيت الحرام فهل هو مفروض على ذي البلد النائي الذي يضطره الوصول إلى أرض الحجاز أن يقضي السنون والأعوام مشياً على الأقدام في ذهاب وإياب؟.

وإذا كان هذا الخالق العظيم قد خلق الإنسان وأتقن صنعه وأبدع الكون كله على أبدع نظام وكان كل ما في الكون يشهد بعظمته ويدل على جلاله وكبير قدرته، فلماذا أمر الإنسان في الحج بأوامر قد يقول قائل إنها شكليات ومجرد أعمال؟. أوليست عظمة العظيم تقتضي أن تكون أوامره كلها عظيمة ومستندة إلى حكمة عالية ونتائج سامية ويسوق على سؤاله هذا بعض الأشياء فيقول: لماذا أمرنا تعالى في الحج بخلع الثياب من المخيط والإحرام بلباس من إزار ورداء؟. ولماذا أمرنا بالسعي بين الصفا والمروة والتطوُّف بهما؟. وما هو المراد من الطواف بالكعبة وتقبيل الحجر الأسود؟. وما الغاية من

الوقوف بعرفة والتلبية بقولنا **لبيك اللهم لبيك**؟. أوليس الله تعالى معنا أينما كنَّا وفي أي جهة حللنا فلماذا نصعد إلى الجبال نادي بالتلبية ونركب هاتيك المشاق؟. ثم ما هي الغاية من رمي الجمار وهل يقف الشيطان مسلسلاً حتى نرجمه بسبع حصيات في ثلاثة مواقع، وفي أي جهة هو موجود يا ترى من هذه الجهات الثلاث؟. وهل يتأثَّر الشيطان برمي الجمار عليه، أم تراه يحترق بذكر الله والإقبال عليه؟. وأخيراً لماذا نذبح الأضاحي ونريق دماء آلاف وعشرات الآلاف من الأغنام وقد لا يؤكل منها إلا عدد قليل؟ أوليس الأفضل أن نتصدَّق بهذه الأموال على الفقراء بدلاً من إراقة هذه الدماء!. وهكذا فإنك تسأل وتسأل وتظل عمرك كله تسأل وما يشفي غليلك من السؤال إلا إذا أنت طبقت حديث رسول الله ﷺ في قوله: «**بني الإسلام على خمس..**».. فإذا أنت طبَّقت هذا الحديث الشريف حق التطبيق وفق ما كنا أشرنا إليه وبيَّناه ثم أقبل رمضان فصمت فيه ذلك الصيام الذي تكلَّمنا عنه حتى حصلت لك التقوى وصارت نفسك ممن يدرك الخير خيراً والشر شراً ويعرف النافع من الضار وأصبحت ممن لا تحدثه نفسه بمعصية لأنه رأى أن المعصية واقتراف الآثام إلقاء بالنفس في الشرور والهلاك وأن الطاعة وتطبيق الأوامر الإلٓهية سعادة وروح وحياة.

أقول إذا أنت طبَّقت هذا الحديث الشريف حقَّ التطبيق وبدأت السير

بانياً أعمالك كلها على الإيمان متنقِّلاً من صف إلى صف في هذه الجامعة العليا متنقِّلاً من حال إلى حال حتى انتهى بك المطاف وأوصلك المسير إلى رمضان فصمته حقاً وشهدت من جلال الله وكماله وخالط قلبك من حبه وعشقِه ما أكسبك نوراً وحلاَّك بحلية التقوى فأنت حينئذ أهل لأن ترقى إلى هذا الصف النهائي وأعني به الحج.

وبالحج وحده تظهر لك البراهين والأدلة.. وبالحج تنفتح أمام عينيك الحقائق سافرة ظاهرة.. وبالحج ترى تفصيلات الأمور التي شهدتها في نفسك في رمضان مجملة وتشاهد دقائقها بصورة جلية حسب طلبك وصدقك في الطلب. فإذا أنت لا يحول بينك وبينها حجاب أو غشاوة.

بالحج ترى وترى فلا تعود تسأل ولا تعود محتاجاً لأن تسأل أي إنسان لأنك غدوت بصيراً مشاهداً وليس يحتاج البصير إلى دليل وإن كان لا يستغني عن الصاحب والرفيق والسيد الشفيع.. بالحج ترى مناسك الحج كلها وتشاهد أنها إنما بنيت على حكم عالية وأن أوامر الإلّه العظيم كلّها عظيمة وأن جميع أعمال الحج إنما هي رموز ووسائل تصل بهذه النفس البشرية إلى أسمى منازل الإنسانية الحقّة.. بالحج تنحل أمام أعين نفسك جميع تلك الأسئلة التي سألتها وتتهافت أمامها جميع المشكلات فترى السبب من الأمر بالحج وسبب الأمر الإلّهي بهذه المناسك والأعمال..

وبالحج لا ترى مناسك الحج فحسب بل جميع ما تتطلَّبه نفسك من أمور وما يعرض لها من أسئلة وما يدور في خلدها من مشكلات.

وهكذا فبالحج تغدو أهلاً لرؤية الأسباب من الأوامر الإلٰهية والمنهيات لأنك قد رأيت مُفصَّلاً ما في هذه الأوامر والمنهيات فأضحت لديك الحجج الدامغة والبراهين القاطعة البيّنة وغدوت عالماً حكيماً وبذلك شهد رسول الله ﷺ لأصحابه الكرام إذ يقول: «**أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم**»[1].

وهكذا فما أمر الله تعالى الإنسان بالذهاب إلى أرض الحجاز وأداء فريضة الحج إلا ليسمو بهذا المؤمن الذي استنارت نفسه في رمضان بنورٍ منه تعالى إلى أعلى مرتبة يجب أن يصل إليها الإنسان. وإذا كنّا نشبّه وضع المؤمن الذي وصلت نفسه في رمضان إلى التقوى بامرئٍ حصل على شهادة جامعية، فمثل هذا المؤمن الذي يذهب إلى الحج ويصل إلى الثمرة المطلوبة منه كمثل من ينال ما يسمُّونه في عصرنا شهادة الدكتوراه ليغدو أستاذاً في تلك الجامعة. ومن هنا نستطيع أن نميّز حالين أو مرتبتين متتاليتين من مراتب التقوى.

التقوى التي يصل إليها الحاج في حجه حيث ينكشف له ما في الأوامر الإلٰهية من أسرار دقيقة وما بها من فوائد مستكنّة وما تنطوي عليه من سعادة لهذا الإنسان ومجتمع الإنسان كافة، كما ينكشف له ما في المحرَّمات من

[1] رواه البيهقي، وأسنده الديلمي عن ابن عباس بلفظ: "أصحابي بمنزلة النجوم في السماء بأيهم اقتديتم اهتديتم".

مضار ومضار يضيق الإحصاء والعدُّ عن حصرها والإحاطة بها. ولهذا المؤمن السامي بعد ذلك وله في كل يوم وله في كل مناسبة مشاهدة ومعرفة جديدة وهكذا إلى ما لا نهاية له. قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾[1].

وإذن فما أمر الله تعالى المؤمنين بالحج إلا ليغدو المصدِّقُ مشاهداً، والمؤمن التقي عالماً حكيماً والإنسان إنساناً حقاً وإلى ذلك أشارت الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿. . .فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوه كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ۞ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ۞ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۞ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[2].

وأنت ترى من خلال ما بيّناه وعلى ضوء هذه الآيات الكريمة ما في الحج من عناية إلٰهية بهذا الإنسان وما فيه من حكمة عالية. وأن الله تعالى لم يقسُ على هذا الإنسان بما أمره به من مفارقة الأهل والأوطان وركوب المشاق وبذل الأموال حتى يؤدي فريضة الحج. بل إنما أراد أن يعدَّه لحياة أفضل وسعادة

---

[1] سورة الكهف: الآية (١٠٩).

[2] سورة البقرة: الآية (١٩٨-٢٠٢).

أبدية ويسمو به إلى المنزلة التي خُلِقَ وأُخرِجَ إلى هذه الحياة الدنيا من أجلها، ليسعى إليها وينالها فيفوز فيما بعد إذا هو وصل إليها بنعيم مقيم وسعادة خالدة. ويتوضَّح لك الأمر ويظهر بجلاء وتستطيع أن تدرك طرفاً من عناية الله تعالى بهذا الإنسان فيما فرضه عليه من الحج إذا أنت أخذت على وجه المثال ما يفعله بعض الآباء في عصرنا الحاضر فتجد الواحد منهم يرسل ابنه إلى أبعد الآفاق ويحثه على السفر إلى أقصى البلاد ويدفع له الكثير من المال غير مبال، ويُعرِّضه لأقسى الظروف وأصعب المناسبات ليدرس ويتخصَّص في الجامعات ويعود بعد سنين فينال وظيفة كبرى أو يضطلع بعمل هام يجعله في وضع اجتماعي رفيع أرفع مما هو فيه من قبل، وترى القريب والبعيد يكْبرون هذا الأب ويجدون فيه العناية الأبوية التامة ويرون حرصه على مستقبل ولده مع أن كل ما بذله هذا الوالد من مال وكل ما جشَّمه ولده من صعوبات إن هو إلا من أجل حياة دنيا وأيام معدودات قد لا تدوم قليلاً ولا كثيراً. أفتجد بعد هذا المثال وبعد أن وضَّحنا لك ذلك بما قدَّمناه لتدرك عناية الله تعالى وواسع فضله وسابغ رحمته بهذا الإنسان؟. وبعد هذا هل يستطيع أحد أن يعد فريضة الحج تكليفاً صعباً أو أن يراها أمراً تعبُّدياً والله أعلم بمراده منها؟. أوليس التدقيق في الآية الكريمة التي أوردناها آنفاً يمبين لنا سبب هذه الفريضة وحكمتها إذ يقول

تعالى: ﴿ . .وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُم. . ﴾[1].

وإذن فما أمرنا تعالى بالحج إلاَّ لذلك الهدف العالي والغاية السامية ﴿ . .فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴾[2]، وكل ما فيه من مناسك وأعمال إن هي إلا وسائل وشرائط بدونها لا تتحقق الغاية من الحج، ولا يبلغ الحاج ذلك الهدف الأسمى. ونسوق على وجه المثال طرفاً من هذه الأعمال ونكون بذلك قد أجبنا على بعض الأسئلة التي عرضناها في مطلع كلامنا عن الحج فنقول:

---

[1] سورة البقرة: الآية (١٩٨).

[2] سورة طه: الآية (١٢٣).

الإحـــــــــــرام

من مناسك الحج المعدودة فَرْضاً الإحرام، والإحرام هو نزع الملابس المخيطة واستبدالها بإزار ورداء مقروناً ذلك بنية الحج. وتكون مباشرةُ ذلك والقيام به من أماكن مخصوصة فإذا بلغ القادم من الشام مثلاً أرضاً معينة اسمها رابغ نزع ملابسه هناك واغتسل ثم أحرم للحج. وكذلك القادم من اليمن له مكان خاص به وكل قادم يُحرِمُ من ميقاته حتى إذا ما أشرفوا جميعاً على مكة كانوا بزيّ واحد وملابس واحدة لا فرق فيها بين ملك وأمير وبين امرئٍ فقير مغمور ليس له ذلك المنصب الدنيوي الكبير. هنالك يتساوى الرئيس مع مرؤوسه والخادم مع سيِّده والوالد مع ولده والتابع مع متبوعه وتسودهم جميعاً روحٌ من المساواة.

يخلع الملك التاجَ عن رأسه فإذا هو حاسر الرأس خِلْوٌ من تلك الملابس التي أفاضها عليه منصبه وإذا هو الآن ليس بملك ولا أمير بل إنما هو عبدٌ من العباد وفرد من الأفراد. هنالك يتخلى ذووا المناصب عن مناصبهم وأصحاب المكانات عن مكاناتهم وأولوا السلطات عن سلطاتهم وقد وقفوا سواسية مع رعاياهم ومنادي الحضرة الإلَهية يناديهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1] .

وهكذا فلا يميِّز فرداً عن فرد عند الله إلاَّ إقباله على الله وتقواه فمن كان أتقى كان إلى الله أقرب وعند الله أحظى من سواه. هذه الروح من المساواة إنما يمليها على الحاج ذلك المنسك من الإحرام. إنه إشعار يشعر النفس بخلع الدنيا ومناصبها والتخلي عن زينتها وبهرجها. وإلى جانب ذلك كله حينما يرى الإنسان نفسه وقد لبس البياض وتلفَّف بالإزار والرداء وأضحى حاسر الرأس مكشوفه تراه يذكر ساعة الموت تلك الساعة الرهيبة التي سيفارق فيها الدنيا فيجرَّد من الثياب ويغسّل ويكفّن بالبياض وهنالك وما أعظم ما في الموت من موعظة وذكرى تجدُ هذا الحاج قد زهد في الدنيا زهداً كلياً ولم يبقَ له إلا أن يقبل على الله بوجهه فيتزوَّد من دنياه لآخرته. ويسير الركب إلى أرض الحرم وتعجُّ هذه الأرض المقدسة بعشرات الآلاف من بني الإنسان جمعتهم على تنائي ديارهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم دعوة الله وكلمته فإذا بعضهم يموج في بعض وإذا هم بياضٌ في بياض وكأنهم قد وقفوا بين يدي الله للحساب والسؤال والجواب في يوم المعاد. هنالك يذكر هذا الحاج ذكرى ثالثة ويعلم أنه سيقف في مثل هذا الموقف في يوم مجموع له الناس وأن الله سبحانه وتعالى هو الحكم العدل وكل امرئ بما كسب رهين. وهنا يتحفَّز هذا

---

[1] سورة الحجرات: الآية (١٣).

الإنسان وقد أصبح هذا حاله إلى العمل المجدي ويُشيح عن الدنيا بوجهه ويلتفت إلى الله تعالى بكليّته ليؤدي مناسك وأعمالاً إذا هو أدَّاها حقَّ التأدية فقد ظفر بالثمرة المطلوبة من الحج وفاز فوزاً عظيماً.

هذه ناحية من النواحي وذلك شيء يسير من كلمة الإحرام وخلع الثياب وفي الإحرام خير كثير وهو شرط أساسي وركن من أركان الحج التي إن لم يؤدِّها الحاج فلا حجّ له.

فهل نستطيع بعد أن تكلَّمنا بما تكلَّمنا عنه أن نقول إن مناسك الحج عبارة عن أمور شكلية وأعمال تعبُّدية لا يُدْرَكُ معناها؟. أليس الإحرام سلسلة من ذكريات تتذكَّر معها النفس أحوالها متنقِّلة متدرِّجة من حال إلى آخر حتى تخلع معها الدنيا بالكليّة وتتخلى عنها وتقبل على الله بوجهها. وهل يذكِّر النفسَ مذكِّر ويعظها واعظ كالموت وأحواله وكفى بالموت واعظاً.

أليس للنفس قوانينٌ وأنظمة لإقبالها على الله تعالى والوجهة إليه؟. ومن أدرى بقوانين النفس وأنظمتها ممن برأها وأوجدها؟. أفلا يجب على الإنسان أن يطيع خالقه ويأتمر بأمره ويعلم أن جميع ما شرعه له إن هو إلا أصول وقوانين سنَّها سبحانه لهذه النفس البشرية حتى ترقى من حال إلى حالٍ وتصل إلى ما أعدت إليه وخُلِقت له من أسمى مراتب الإنسانية والكمال؟.

وننتقل الآن إلى الطواف بالكعبة..

الـطـــــــــــواف

أول ما يفعله المحرم إذا دخل مكة الطواف بالكعبة سبعة أشواط فقد رُوي أن رسول الله ﷺ حين قَدِمَ مكة أول ما بدأ به أن توضأ ثم طاف بالبيت. ويبدأ الحاج الطواف من الحجر الأسود فيستقبله ويرفع يديه مكبراً كما يرفعهما في الصلاة ثم يستلم الحجر فيقبّله. وبعد ذلك يطوف جاعلاً البيت عن يساره ماشياً رَمَلاً في الأشواط الثلاثة الأولى مضطبعاً بردائه. فإذا أنهى الشوط الأول عاد فالتزم الحجر مقبِّلاً فإن لم يستطع أشار إليه بكفَّيه وقبَّلهما. وهكذا حتى يتم السبعة أشواط فما المراد يا ترى من الطواف بالكعبة؟. وما المقصود من المشي رملاً والاضطباع بالرداء؟. وما الغاية من تقبيل الحجر الأسود ما دامت الكعبة بيتاً مبنياً من حجارة عادية كما تبنى به سائر البيوت وما دام الحجر الأسود جزءاً من هذه الأرض وحجراً من أحجارها. وهل حقيقة الطواف أن يطوف الحاج بهذا البيت المبني من الحجارة؟. وهل المراد من تقبيل الحجر الأسود تقبيل هذا الجماد أم هناك سرٌّ خفيٌ ومعنى دقيق إذا لم يفقهه الحاج فقد خسر في حجّه خسراناً مبيناً ورسول الله ﷺ يقول: «**من يُرِدِ اللهُ بهِ خيراً يُفَقِّهْهُ في الدِّين**»[1].

---

[1] الجامع الصغير: /٩١٠٣/ (حم ق)، (حم ت) عن ابن عباس (هـ) عن أبي هريرة.

وفي الجواب عن هذا السؤال نقول: ليس المراد من الطواف بالكعبة أن تطوف بهذه الحجارة، وليس المراد من الطواف بالبيت البيت ذاته إنما المراد أن يطوف جسدك به من ظاهره لتستطيع نفسك أن تسري إلى داخله فتجتمع بتلك النفس الزكية الطاهرة المقبلة منه على الله وأعني بها نفس الرسول ﷺ. فإذا ما طاف جسدك بظاهر الكعبة واستطاعت نفسك أن تخترق الحجارة والبناء وتسري إلى داخله وإذا ما اجتمعت نفسك بنفس رسول الله وعرجت بمعيتها وبصحبتها إلى الله، وصرت ترى نفسك وأنت تتطوَّف بالبيت بين يدي ربّ البيت فقد صحَّ طوافك وحصل لك المطلوب من النسك ولك أن تتمثل بقول من قال:

وما حبُّ الديار شغفن قلبي ولكن حبُّ من سكن الديارا

أما إذا أنت نظرت إلى الصور ورأيت البيت وما سَرَتْ نفسُكَ إلى داخله ولم تحصل لك الصلة برب البيت فحاسب نفسك بنفسك ولا تقولنّ ما لاقيت في طوافي إلا تعباً وما وجدت إلا زحاماً وما جنيت من ثمره بل اعلمْ أنك أنت المقصِّر المفرط من قبل. واعرف بأن لنفسك في سيرها إلى الله تعالى وإقبالها عليه كما ذكرنا من قبل أصولاً وقوانين وإنك لم تراعِ هذه الأصول والقوانين. ولا تبكينَّ عينك أسفاً فالبكاء لا يجديك نفعاً.

وإذا شئت لنفسك حجاً صحيحاً فأعدَّها من قبل ذهابك الإعداد اللائق

بذلك اللقاء وقدّم لنفسك بسلوك طريق الإيمان والتحلّي بحلية التقوى فإذا أنت فعلت وتأهبت ثم شددت الرحال ظاعناً إلى تلك الديار فهنالك تنزل ضيفاً على ربٍّ كريم يَهَبُ الجزيل على القليل ويجزي الصادقين بصدقهم ولا يضيع أجر المحسنين.

وهكذا فليس يحج البيت حقاً وليس يطوف حقاً وليس يصل إلى الثمرة المطلوبة من الحج إلا من كانت له سابقة إيمان وتقوى ومن لم يكن من قبل مؤمناً تقيّاً ومن لم يجاهد في سبيل الله حق الجهاد فلا يطمعنّ بما يطمع به من عظيم منزلة وكبير شأن عند الله ولا يظنَّن إن ذهب إلى الحج أنه سيعود بأرقى حالاً مما ذهب فلكل حالٍ تريده طريق يجب أن تتبعها وسُنّة يجب أن تسلكها ولكلّ درجات مما عملوا ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا.

استقبال الحجر الأسود

وفي الحجر الأسود أقوال وروايات مختلفات لا يعرف الصحيح منها إلا من نوَّر الله قلبه بنور الإيمان وحلّاه بحلية التقوى فأدرك ما في الأوامر الإلَهية من الخير وميَّز بين الغث والسمين.

وبعد أن تكلَّمنا عن الطواف والغاية العالية منه فلنذكر لك نزراً يسيراً من كثير عن الحجر الأسود وسبب استقباله والغاية من التزامه ولنبدد في ذلك أقوالاً لا تستند في أصلها إلى شيء من حقيقة ولا تعتمد على علم وفقه فنقول: لا يستطيع أن يطوف الحاج بالبيت، ولا يصل إلى بغيته منه ما لم يستقبل الحجر الأسود ويُقبِّله ولو عن بعد. ولكن ماذا يفيد الإنسان من تقبيل الحجر الأسود وما الحجر الأسود كما ذكرنا من قبل إلا جمادٌ وحجرٌ من الأحجار؟.

وأما القول الذي يذهب فيه صاحبه إلى أن الحجر الأسود من أحجار الجنة فهو باطل أصلاً.. إنه يريد أن يلصق الأوهام الباطلة بشرعة الإسلام، والإسلام كما رأينا من قبل دين حق ومنطق سليم وعقل، وكل ما جاء به مبني على حقائق ثابتة ومستند إلى قوانين وسنن كونية ومن زعم غير ذلك فهو بعيد عن إدراك حقيقة هذا الدين البعد كله، إذ ما عساه أن يفعل

جماد؟. وما عساه أن يجلبه حجرٌ من خير أم ما عساه أن يردَّ من شرٍّ عن الإنسان؟. أهي عودة لعبادة صنم؟!!. كلا.

وهكذا فليس يكشف لنا الحقيقة في تقبيل الحجر الأسود إلا الإيمان. وليس يدرك المراد من فعل رسول الله ﷺ إلاَّ تقيٌّ آمن بالله ورسوله فأراه الله سرَّ فعل الرسول وهنالك يعرف المراد ومن يتق الله يشاهد بنوره ﴿..وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ..﴾[1].

لقد أُثِرَ عن الرسول ﷺ أنه استقبل الحجر الأسود قبل بدئه بالطواف والتزمه مُقبِّلاً فبكى طويلاً. فَلِمَ قبَّله ﷺ وهو الحكيم الذي لا يفعل فعلاً إلاَّ وكله مبنيٌّ على علم وحكمة، وخير وفائدة؟. ولِمَ بكى ﷺ عند التزامه طويلاً وما يكون له أن يبكي في مثل هذا الموضع إلاَّ لسرٍّ عظيم أدركه من التزامه إيَّاه وتقبيله؟. أليس التزامه الحجر وتقبيله إيَّاه، أليس بكاؤه طويلاً عند التزامه دليلاً على حالٍ نفسي قام في تلك النفس العالية فكان البكاء تعبيراً عن ذلك الحال العالي؟. أليست تلك الدموع التي جالت في عيني رسول الله ﷺ دليلاً على قرب من الله ومناجاة مع الله؟.

لقد بيَّن لنا ﷺ المراد من تقبيل الحجر الأسود بقوله: «**الحجرُ يمينُ الله في الأرض يصافح بها عباده**»[2].

---

[1] سورة البقرة: الآية (٢٨٢).

[2] الجامع الصغير: /٣٨٠٤/ للخطيب وابن عساكر عن جابر.

وفي حديث آخر: «**الحجرُ يمينُ الله تعالى، فمن مَسَحَهُ فَقَدْ بَايَعَ اللهَ**»[1] فلن يفرِّق الحاجُّ بعدها بين أبيض وأسود إلاَّ بالتقوى ولا يرى جمالاً إلاَّ لأهل القلوب فهو يرى بقلبه الحقائق ولن تغرّه الصوَر والأهواء والمظاهر الدنيوية.

وهكذا فما الحجر الأسود إلاَّ رمز وما تقبيلك إيَّاه إلاَّ إشارة لارتماء هذه النفس على أعتاب الله وتعبيرٌ عن عهد تعاهد عليه الله. تعاهد فيه على الطاعة وانتهاج صراط سوي وسلوك قويم لا تخالطه شائبة، ولا تزعزعه خطوبُ تمييزٍ عنصري.. فإن أنت قبَّلت الحجر الأسود ذلك التقبيل وقام في نفسك وأنت تستلمه أو تشير إليه عن بعد ذلك الحال، وعاهدت ربك ذلك العهد فقد أضحت هذه النفس المعاهدة الراجعة بالتوبة والإنابة إلى الله أهلاً لأن تخترق خلال طوافها البناء والأحجار وتسري إلى داخل البيت فتجتمع بنفس رسول الله ﷺ وتقْبل بمعيّته على الله وبذلك تصل إلى الثمرة المطلوبة من الطواف.

أما وقد عرفنا المراد من تقبيل الحجر الأسود والتزامه قبل الطواف فمن اليسير علينا أن ندرك المراد من المشي رملاً في الأشواط الثلاث الأولى فنقول:

ما المشي رملاً وهو الهرولة مع تحريك الكتفين كالمبارز يتبختر بين الصفين

[1] الجامع الصغير: للديلمي في مسند الفردوس عن أنس الأزرقي عن عكرمة.

إلاَّ إعلان يعلن فيه الإنسان خضوعه لحضرة الله وعبوديته وتذلُّله بين يدي هذا الإلّه العظيم والرب الرحيم.

وهذا الطائف يقول بلسان الحال أي ربِ جئتك أسعى مهرولاً متنازلاً عن كل ما كنت أعتزُّ به من منصب ومال متبرئاً من كل ما لصق من قبل بنفسي من إعجاب بالنفس أو فخر واعتزاز، متذللاً بين يديك، معترفاً بعبوديتي إليك، مفتخراً بإقبالي عليك طائراً بجسمي وروحي ونفسي إلى رسولك مَن أمرته باللقاء بي وبالمؤمنين من هذا المكان مكان اللقاء ليعرج ﷺ بنا إليك، لذا أتيت مستعجلاً مهرولاً. وذلك المعنى الأخير الذي أوردناه إنما يشير إليه هزُّ الكتفين والاضطباع بالرداء وأعني به ما كان يفعله ﷺ من جعل الرداء تحت الإبط الأيمن مكشوفاً رأس الكتف وإلقاء الطرف الآخر من الرداء على اليسار.. وهكذا فلا يتم الإنسان الشوط الثالث وهو بهذا الحال حتى تلج النفس البيت الحرام وهنالك تجتمع كما ذكرنا بسيد العالمين ﷺ وإمام الرسل الكرام فتقْبل معه على الله وتتم الأشواط الأربعة وهي بهذا الحال من الإقبال.. ولا يلبث الحاج أن ينتهي من الطواف سبعاً بالكعبة حتى يواجهه نسك جديد وهو:

السعي بين الصفا والمروة

سبعة أشواط: والصفا والمروة موضعان مرتفعان لا يبعدان كثيراً عن الكعبة بينهما منخفضٌ أشبه بوادٍ. ويبدأ الإنسان السعي من الصفا فيستقبل الكعبة ويكبِّر مُهلِّلاً بصوت مرتفع مصلِّياً على النبي ﷺ رافعاً يديه حذاء منكبيه ثم يمشي نحو المروة فإذا وصل في طريقه إلى قرب الميل الأخضر هرول مرملاً حتى يصل إلى الميل الأخضر الثاني وهنالك يعتدل في مشيته فإذا بلغ المروة صعد عليها وفعل ما يفعله عند الصفا من استقبال الكعبة والتكبير والذكر وبذلك يكون قد أتمَّ شوطاً وفي العودة من المروة إلى الصفا شوط وهكذا حتى يتم سبعة أشواط. فإذا فرغ من السعي ظلَّ في مكة محرماً، لا يحلق شعراً، ولا يقلِّم ظفراً ولا يمس طيباً ولا يلبس مخيطاً، ولا يستر رأسه ولا يلبس خفّاً ولا يقرب زوجاً حتى إذا كان اليوم الثامن من ذي الحجة خرج الحجَّاج جميعهم من مكة يقصدون عرفات.

وإذا كنا قد عرفنا المراد من الإحرام والطواف سبعاً بالبيت الحرام والغاية من تقبيل الحجر الأسود فما المراد يا ترى من السعي بين الصفا والمروة. وإلامَ يشير السعي هنا؟. ولمَ سميَّ هذان الموضعان بهذه التسمية؟. وهل الهرولة هنا ترمز إلى نفس الحال الذي يجب أن يقوم في النفس عند الطواف بالكعبة أم

أن لها هنا معنى آخر؟.

وفي الجواب عن هذا نقول: كل عمل من أعمال الحج وكل منسك من مناسكه له غايته وثمرته التي تختلف عن سابقهِ. فليس سعيٌ يشبه سعياً وليس طواف بمشبه طوافاً وليست الهرولة أثناءِ السعي بين الصفا والمروة بمؤدية إلى نفس الحال الذي نصل إليه بالمشي رملاً خلال الطواف بالكعبة وإنك إذا وصلت إلى الحقيقة واستنارت نفسك بنور الله شاهدت أن مناسك الحج إنما هي سلسلة من أعمال تتدرج بالنفس من حال إلى حالٍ أرقى من سابقه حتى تصل بها إلى الغاية التي أعدت لها فإذا ما قصَّر الإنسان بعمل من تلك الأعمال ولم يؤدِّه عالماً بما شُرِعَ من أجله فقد أخفق في سعيه ولم يصل إلى الغاية المطلوبة.

ومن اليسير عليك أن تدرك طرفاً مما نقول من الذي فصَّلناه لك خلال كلامنا عن المناسك السابقة ويزداد لك الأمر وضوحاً وتتمكن هذه الحقيقة مستقرة في نفسك بما سنذكره لك عن بقية المناسك. ولنذكر لك الآن المراد من الهرولة في السعي بين الصفا والمروة فنقول:

إذا كان الحاج خلال الطواف بالكعبة قد وصل بنفسه إلى تلك النتيجة الطيبة من الدخول إلى البيت الحرام والاجتماع بالإمام والإقبال بمعيَّته على الله وشعرت هذه النفس بذلك الجلال الإلهي فمشت مرملةً متذللةً بين يديه

تعالى فخورة بإقبالها عليه. وهنالك وبهذا الحال الذي وصلت إليه تجدها مستعدة للسعي بين الصفا والمروة. وفي السعي بين الصفا والمروة حال جديد يقوم في النفس فتشعر هذه النفس الداخلة على الله بقبول الله لها كمثل امرئ دخل على ملك ذي مهابة وسلطان عظيم فتكرّم عليه بالقبول ودعاه إليه وهنالك تراه يهرول ساعياً معبِّراً عن قبول نفسه لهذه المنّة وتلبيته لتلك الدعوة بهذا السعي والهرولة فإذا ما دنا من ذلك الملك أو كاد خفّف السرعة ومشي بتؤدة وهكذا فكل مشيةٍ بحال، ولكل هرولة وضع نفسي خاص وما يقدِّر هذه المواقف بين يدي ذي الجلال والعظمة وما يعرف قيمة هذه الأحوال التي تجري للإنسان خلال قيامه بهذه المناسك إلا امرؤٌ مؤمنٌ شهدت نفسه طرفاً من الجلال والعظمة الإلّهية فراح يغبط هذا الحاجَّ ويتمنى أن لو يكون له مثل ذلك الحال الذي أنعم الله به عليه.

والآن بعد أن ذكرت لك طرفاً عن المراد من السعي بين الصفا والمروة والهرولة بهذا السعي أحب أن أشرح لك شيئاً عن المراد من هذه التسمية فأقول: ترمز كلمة (**الصفا**) وتشير إلى ذلك الحال المعنوي الذي يخالط النفس حال وقوفها في ذلك المكان. لقد قادها الطواف إلى الدخول في حضرة الله وانغمست في ذلك الجلال الإلّهي وغمرتها تلك الحال فإذا بها تتَّجه إلى الصفا وقد صفا القلب بإقباله على الله من كل ما سواه فأضحت النفس

بقربها من خالقها في صفاءٍ وبحال لا ترى معه غير الله. فكانَ الوقوف على الصفا رمزاً لما حصلت عليه النفس وتعبيراً عما لازمها من حالٍ عالٍ رفيع.

فإذا خالط النفس هذا الحال وشعرت بقبول الله لها للمثول بين يديه وهرولت ساعية إليه هنالك وعند وصولها إلى المروة وما أن تقف في ذلك المكان حتى تراها قد غمرها حالٌ جديد فأصبحت ترى قربها من ذلك الجناب العالي والإلّه العظيم. فإذا الوقوف بالمروة رمز لذلك الحال الذي أضحى فيه الإنسان يرى ذاته بذاته ويشاهد قربه من خالقه وما ناله من الحظوة والزلفى بين يدي ربه بالتمسك برسوله بقلبه والغرف بواسطته من أذواق ومشاهدات الكمالات الإلّهية العليّة وينال ما ينال مما هو أهل لنواله.

ويعيد هذا الإنسان الكرَّة راجعاً من المروة إلى الصفا فإذا هو في حال أعلى من سابقه وإذا القلب بسبب قرب العبد من ربه وخالقه قد زاد صفاءً وما يزال يتنقَّل بين المكانين المذكورين ساعياً حتى يتم السبعة أشواط ولسان الحضرة الإلّهية يناديه: "**تعال يا عبد الله، تعال أعطيك، تعال أمنحك، تعال أتفضَّل عليك وأكشف الغطاء عن قلبك والموعد بيني وبينك إنما هو يوم عرفه فاستعد لذلك اليوم ولتظلَّ في حال الأهبة**" ولذا تراه ملازماً ما هو فيه من الإحرام والامتناع عما ذكرناه من قبل من محظورات..

وتسمى هذه الأعمال التي بيّناها من قبل من الإحرام وكذلك الطواف

بالكعبة، والسعي بين الصفا والمروة "**عمرة**" لما فيها من إعمار القلب بالإقبال على الله وتخزين الكمالات الإلّهية بنفسه لتغدو أهلاً للمعرفة بعرفه بما اعتمر به قلبه ولتهيئته للحج بالوقوف بعرفات.

وقد أمرنا الله تعالى في القرآن الكريم أن نقرن العمرة بالحج ولا نفصلهما عنه، فليس لمن نوى الحج وأحرم به معتمراً أن يباشر بعد انتهائه من العمرة شيئاً من المحظورات حتى يتم حجه.

وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ لله. . ﴾[1].

ولعلك تقول: قد يطول الأمر بالحاج ويمتد به أياماً وأسابيع عديدة فإذا أحرم الإنسان بالحج مثلاً في أول شهر الحج، أي في مطلع شوال وأدَّى العمرة وقام بما تتطلبه من أعمال فهل يظل خلال هذه المدة الطويلة أي إلى أن يفيض من عرفات بحال الإحرام لا يلبس من الثياب إلاّ الإزار والرداء، بعيداً عن النساء مانعاً نفسه من الطيب، وقص الشعر وتقليم الأظافر إلى غير ذلك من المحظورات؟.

وفي الجواب عن هذا نقول: إذا كان هذا الإنسان ممن يعرف قيمة الحج ويعلم ما سيعود به عليه من الخير فإنه يسترخص في سبيله كلَّ غالٍ، وتهون أمامه كل مشقة وما جعل الله تعالى مكة بوادٍ غير ذي زرع وما كلَّف

[1] سورة البقرة: الآية (١٩٦).

الإنسان بما كلَّفه به من الأعمال، وما منعه مما منعه عنه من مباحات إلاّ ليضيِّق على هذه النفس ويصرفها عن هذه الدنيا ونعيمها ويقطعها عما فيها من مشاغل فتتفرَّغ بالكليّة وتظل في حال الأهبة والاستعداد ليوم الحج والوقوف بعرفات يوم يجني الحاجُّ الثمرة من حجّه فتهون لديه جميع هذه المتاعب ويستعذب ما لقي من مشاق وهكذا فكلَّما غلا ثمن ما نطلبه وصَعُبَ الوصول إليه زدنا تمسُّكاً به وحرصاً عليه وقديماً قيل: ومن ملك البلاد بغير حربٍ هان عليه تسليم البلاد.

ومما يوضح لك ما نقول ما سنبيّنه لك بالمثل التالي:

أرأيت إلى الطالب الرشيد إذا دنت منه أيام الفحص يتجافى جنبه عن المضاجع، ويهجر دفء الفراش ويشيح بوجهه عن كل ما يشغله عن الاستعداد والتفرُّغ للاجتهاد ولا يعود يخطر له شيءٌ من مشاغل الحياة وملاذِّها حتى إنه ليعكف في غرفة لا يكاد يخرج منها مكبّاً على الدرس مستعداً لذلك اليوم حتى إذا ما نجح في امتحانه وظفر ببغيته استرخص جميع ما بذل من جهد ونسي ما واجهه من ضيق وتعب وما الثمرة التي ينالها هذا الطالب وما الشهادة التي يفوز بها بمعادلة ذرةً من بحر مما يناله الحاج في حجه وأين نجاحٌ من نجاح، وظفرٌ من ظفر، وسعادة أبدية لا نهاية لنعيمها من شبه سعادة آنية لا يدوم نعيمها ولا تطول فرحتها.

وهكذا فلْتصبر أيها الحاج، ولتقرن الحج بالعمرة ولا تفردْهما ولا تفصلهما عن بعضهما كما يفعل كثير من الناس إلا إذا أُحْصِرْتَ لمرض أصابك أو سبب قاهر عَرَض لك وهنالك تستطيع أن تحل من إحرامك شريطة أن تذبح رأساً من غنم أو أكثر حسب وسعتك ويسرك وكلما زدت كان ذلك أحسن وأمْلك لقربك وأضمن لتلافي ما فاتك بقدر إمكانك لتحصل لك القناعة وتُقنع نفسك بأنَّ الله راضٍ عنك فتسير معك، فهذه الذبيحة تمتِّن ثقة النفس فتُقبل على الله، وقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك فقال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾.

وسمح تعالى للمريض أن يحلق رأسه قبل أن يبلغ الهديُ محله أي أن يصل ليد مستحقةٍ شريطة أن يقوم هذا المريض بأعمال بيَّنتها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿. . فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُم. .﴾[1].

أي إذا أَمِنَ المريض وزال ما يجده من أذى من رأسه، فهنالك يضيف إلى ما كان قدَّمه من هدي فديةٌ من صيام يصومه بقدر استطاعته وَمِكْنَتِهِ، أو صدقة يتصدق بها حسب يُسْرِهِ، أو نسك وهو دلالة وهداية نفس إلى الحق، يُقدِّمها بحسب حاله، إذ أمن، أما التمتُّع بالعمرة إلى الحج وقرْنَهَا فهذا أحسن شيء.

---

[1] سورة البقرة: الآية (١٩٦).

إلـــى عــرفـــــــات

ويظل الناس في مكة يزكُّون أنفسهم ويُهيِّئونها يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة حتى إذا ما رقَّت حُجُب هذه النفوس وألهبها الشوق إلى اللقاء في ذلك اليوم الموعود سار الحجاج في اليوم الثامن من ذي الحجة إلى منى فباتوا بها ليلتهم وفي ذلك المكان يدعو الحاج ربه قائلاً: «**اللهم هذه منى فامنن عليَّ بما مننت به على أوليائك وأهل طاعتك**».

هذا وإن اسم هذا المكان والمبيت فيه ينطوي على معاني جمَّة نوجزها لك: إن تسمية ذلك المكان بإسم "**منى**" عبارة عن رمز لقرب نيل الحاج أمنياته التي طالما تكبَّد من أجلها المشاق، وطالما بذل للحصول عليها الغالي والنفيس، فغداً يجني الحاج ثمرة أتعابه وما أصعب الانتظار قبل إعلان النتائج وكل إنسان يضرع إلى الله في تلك الليلة أن يحقق أمنياته، وأن ينال ما هو ساعٍ إليه ويظل هذا حاله يدعو ويتضرع إلى أن يتنفس الصبح.

وفي اليوم التاسع يقفون بعرفة ولأصواتهم عجيج يسري في الآفاق ويملأ الفضاء وكلهم يقول مخاطباً صاحب العزة والجبروت مجيباً نداء ذي الملك والملكوت وقد ناداهم ليتفضل عليهم ويسبغ عليهم من إحسانه فيلبُّون النداء بقولهم: «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة**

لك والملك لا شريك لك»[1].

إنه يوم يشبه الحشر والنشر لا فضل فيه لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي، ولا لأمير على مأمور.. اليوم يتفاضل الناس بأعمالهم لا بأنسابهم ولا بألوانهم. هذا اليوم هو نيل الشهادة "**شهادة أن لا إلّه إلاّ الله وأن محمداً رسول الله**" شهوداً قلبياً، وفي هذا اليوم يرى حقائق ما كان ليراها من قبل، ويرى الخير كل الخير فيما كان يأمره الله به، والشر كل الشر فيما كان ينهاه عنه. وفي هذا اليوم يرى حقائق أسماء الله الحسنى متجلية على العرش بالإحسان والفضل، بالرحمة والكرم والحنان والبهاء.

هذا هو اليوم التاسع من ذي الحجة إنه يوم عرفة إنه يوم الحج يوم يجني الحاج ثمرة عمله، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله الكريم: «**الحج عرفه**»[2].

لقد بذل الإنسان حتى بلغ هذا الموقف أموالاً طائلة وتكبّد مشاق ومتاعب جسيمة وقضى في هذا السبيل شهوراً بل سنين عديدة وإن شئت فقل عمراً طويلاً يجاهد ويسعى وهو اليوم يريد أن ينال ثمرة ما بذل ويظفر بنتيجة ما قام به من أعمال.

لعمري إنه ليوم عظيم تتوقف على الفوز فيه السعادة ويتغيَّر له مجرى الحياة

---

[1] رواه أبو داود في سننه عن جابر بن عبد الله، والمحلّى لابن حزم (ج٥ / ص٨١).

[2] ابن ماجه ج٢/كتاب المناسك باب (٥٧/ ٣٠١٥).

لا حياة الأفراد فحسب بل حياة الأمم والأجيال. والبشرى كل البشرى لمن أعدَّ نفسه لهذا اليوم الإعداد التام. ومن ظفر بما في هذا اليوم من خير فقد فاز، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلاَّ متاع.

عشرات الألوف لا بل مئات الألوف من بني الإنسان أتوا من سائر الأصقاع أو البلدان ومن مختلف الشعوب والأقوام لقد جاؤوا من مشارق الأرض ومغاربها وهم الآن جميعهم على جبل عرفات.

لقد اغتسلوا الغسل المسنون الذي علَّمهم إياه رسول الله ﷺ ووقفوا جميعهم مع إمامهم وقد حان وقت الظهيرة يستمعون إلى الخطبة التي يعلِّمهم فيها مناسك الحج من الوقوف بعرفة والإفاضة منها والوقوف بمزدلفة، إنهم يصغون إليه لئلا يفوتهم منسك من المناسك فيُحرموا من الحج وما فيه من خيرات والمحروم كل المحروم من فاته الحج وأضاع هذه الفرصة. إنها لفرصة ثمينة إن فاتت صاحبها فما أبعد ما تعود.

ويؤذن المؤذن بين يدي الخطيب وترهف له مسامع الناس حتى إذا ما انتهت الخطبة وأقام المؤذن الصلاة وقف الناس جميعاً مع إمامهم يصلي بهم الظهر والعصر معاً يجمعهما جمع تقديم فيؤدي فريضة الظهر أولاً ثم يتبعها بفريضة العصر دون أن يقصر الرباعية أو أن يصلي قبل الفريضتين أو بعدهما أو يفصل بينهما بشيء من النوافل فإذا ما انقضت الصلاة وراح إلى الموقف

راح الناس معه وقبلتهم جميعاً البيت الحرام ووجهتهم كافة إلى فاطر السموات والأرض وإمامهم الحق رسول الله ﷺ. إنهم جميعاً يلبون على اختلاف ألسنتهم وألوانهم بقولهم: "**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك**" لا يقطع تلبيتهم إلاَّ تهليل وتكبير وصلاة على النبي ﷺ وتراهم عند الدعاء يرفعون أيديهم ضارعين إلى الله في افتقار وانكسار يبسطون أكفهم في نحورهم كمن يطلب العطاء والإحسان. ويمتد بهم الوقوف ويواصلون التلبية والذكر لا يفترون ولا يسكت لسانهم ولا تنقطع نفوسهم لحظة عن الإقبال على الله. وتتسامى هذه الأنفس عارجة إلى ذلك العالم المعنوي عالم الطُّهر والقدس وشهود الكمال وتتصعَّد ميول النفس وتسمع ويلذّ كثيراً الإقبال على ذي العزة والجلال وما تزال تسمو وتتسامى حتى تبلغ الأوج وتصل إلى الذروة وتصبح أهلاً للرؤية. وهنالك تميط الحضرة الإلهية اللثام لهذه الأنفس المقبلة بمعية رسول الله ﷺ والتي أضحت بإقبالها العالي أهلاً لرؤية الكمال والجمال الإلهي فترى كل نفس من هذا الجمال والكمال طرفاً متناسباً مع حالها وإقبالها ونصيبها من العطاء والإحسان الإلهي نفحةٌ من النفحات وهنالك وفيما هي في هذا الحال العالي من الإقبال والاستغراق في رؤية الكمال ينطبع على صفحات هذه النفس وعلى غير شعور منها الحق وتصطبغ من الله تعالى بصبغة

الكمال. ينطبع على صفحاتها الحق من الحق جل جلاله فتغدو محبة الحق، معاينةً الحق، مصطبغة بصبغة الحق، عليمة به، مدركة الحق من كل أمر من الأمور، وفي كل عمل من الأعمال.

وتؤذن شمس هذا اليوم بالمغيب وينصرم النهار ويفيض الناس من عرفات وقد أفاض عليهم المولى الكريم من عميم فضله وإحسانه وأغدق عليهم من برّه وإنعامه وسقاهم شراباً طهوراً من تجلِّيه ونوره فإذا بهذا الحاج قد أضحى إنساناً لا كغيره من بني الإنسان. لقد أضحى هذا الإنسان عالماً حكيماً، وأصبح بالخلق رؤوفاً رحيماً ونزل من الموقف وللحكمة ينابيع تتفجَّر بلا انقطاع في قلبه وفي الحديث الشريف: «**مَن أخلصَ للهِ أربعينَ يوماً ظَهرتْ ينابيع الحكمة من قلبه عَلى لِسَانِه**»[1].

لقد درس هذا الحاج في مدرسة عليا كان معلِّمه ومرشده فيها رسول الله ﷺ فوصل إلى هذا المقام العالي من الكمال الإنساني وصار أهلاً لأن يكون معلِّماً في تلك المدرسة العليا.

وعند الغروب يدفع الحجيج إلى المزدلفة وعليهم السكينة والوقار من هذا الحال العالي الذي غمر نفوسهم وتلك الزلفى التي فازوا بها من خالقهم ويذهبون إلى المزدلفة وقد غمرت أنفسهم موجة عظيمة من الشكر لله على

[1] الجامع الصغير/٨٣٦١/ (حل) عن أبي أيوب.

ما منَّ به عليهم من الهداية وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ . .فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوه كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ۞ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ واسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

[1] سورة البقرة: الآية (١٩٨-١٩٩).

إلـــى مــزدلــفــــــــة

وفي المزدلفة يصلي الحجاج صحبة إمامهم المغرب والعشاء معاً يجمعهما جمع تأخير أي أنهم يؤخرون المغرب إلى وقت العشاء ويقضون ليلتهم هذه ما بين تهليل وتحميد وتكبير لا يغمض لهم جفن فإذا طلع الفجر صلُّوا بغلس أي في العتمة وأفاضوا بالدعاء: "**اللهم بحق المشعر الحرام، والبيت الحرام والشهر الحرام والركن المقام أبلغ روح سيدنا محمد التحية والسلام وأدخلنا دار السلام يا ذا الجلال والإكرام**".

ويمتد بهم الوقوف بمزدلفة إلى الإسفار وعندئذٍ قبيل طلوع الشمس يذهبون إلى منى.

إلى منى (جمرة العقبة)

وقد ظفروا بأكبر أمنية كانت قد تطلَّعت إليها نفوسهم منذ أن دخلوا مدرسة الإيمان وتعرفوا إلى السيد الأعظم ﷺ. لقد فازوا بالمنى وأصبحوا من أهل التقوى وغدوا من ذوي البصائر المستنيرة بنور ربِّها المشاهدة سرَّ الأوامر الإلَهية وما انطوت عليها. وهل لهذا الإنسان السامي من أمنية ومنى إلا أن يصبح مستنير القلب بنور ربّه، مصاحباً رسول الله ﷺ بنفسه، مقبلاً على الله تعالى بمعيَّته، أليست أكبر أمنية لهذا الإنسان معرفته بكمال الله وصحبته لرسول الله واستنارة قلبه بنور الله ورؤية ما انطوت عليه آيات الله ليكون من بعد ذلك كله دليلاً للخلق على الله وداعياً إياهم إلى الله.

وفي منى يرمون جمرة العقبة بعد طلوع الشمس سبع رميات بسبع حصيات كانوا قد حملوها معهم كما فعلها رسول الله ﷺ من مزدلفة ويقطعون التلبية عند أول حصاة. يأخذ أحدهم الحصاة بين السبابة والإبهام من اليد اليمنى ثم يقذف بها إلى موضع الرمي من الجمرة ويكبر بكل حصاة يرميها فيقول: **"بسم الله الله أكبر رغماً للشيطان وحزبه ورضاءً للرحمن اللهم اجعله حجاً مبروراً وذنباً مغفوراً وسعياً مشكوراً"**.

ولعلك تقول: آن لي أن أفهم المراد من رمي الجمار في سؤال كنت قد

سألته من قبل عند بدء الكلام عن الحج ومناسكه.

وفي الجواب على هذا السؤال أقول: لا يظنن امرؤ أن الحاج إنما يرمي الشيطان فالشيطان لا يؤذيه مثل ذلك وما هو ساعتئذٍ بمحجوز هناك وما ذلك الرمي إلاَّ إعلان عن شعور وتعبير عن حال نفسي ونسك يرمز إلى حقيقة تمثلت في نفس هذا الإنسان وإليك بعض التفصيل لهذا النسك: لقد شهدت نفس هذا الإنسان المستنيرة بنور ربها بما تكرم الله به عليها في عرفات ورأت حقيقة الدنيا وما انطوت عليه شهواتها الدنيّة من أذى وشقاء ولذلك تراه عندما يرمي الحصاة يقول بلسانه الله أكبر ونفسه تقول ما أكبر فضلك عليَّ أيها الرب الكريم لقد هديتني بهداك وتفضلت علي بمعرفتك وشرفت قلبي بحب رسولك ونبيك وأريتني مكائد الشيطان وحزبه وأنا أعلن معاداتي للشيطان وحزبه بما ألقي به من حصيّات.

إنه يرمي الحصاة ولسان حال النفس يقول: هكذا عاديتك أيها الشيطان الرجيم وعاديت كل بعيد عن الله فمالك عليَّ بعد اليوم من سبيل.

ذلك بعض ما ندركه من هذا النسك الذي علَّمنا إياه رسول الله ﷺ في رمي الجمار وذلك مما نفهمه من قوله ﷺ عند الرمي إذ يقول: "**بسم الله الله أكبر رغماً للشيطان وحزبه ورضاء للرحمن**" وإذا انتهى الحجاج من الرمي صلّوا مع إمامهم في منى صلاة عيد الأضحى وما صلاة العيد في هذا الموطن

إلا إعلان عن شكر الإنسان لخالقه على ما منَّ به عليه في الحج من عظيم الهداية وسابغ الفضل وبالغ الإحسان والنعمة. ومن أسعدُ حالاً من هذا الحاج الذي تفضل عليه مولاه بهذا الفضل ومَنْ أكبر نعمة ممن لاذ بجناب فاطر السموات والأرض وأضحى في كنف هذا الرب العظيم والإلّه الرحيم يشاهد الجمال ويرتشف الكمال ويشاهد بنور الله أسرار الشريعة وحكمة الأوامر فيتعلَّم تأويل الأحاديث ويرى فضل الله على العباد وإحسانه السابغ على سائر المخلوقات.

والله أكبر.. كلمة تلهج بها ألسنة الناس قبل صلاة العيد وبعدها وفي أيام العيد الأربعة بعد كل صلاة مفروضة حتى عصر اليوم الأخير منه يرددها الإمام والمقتدون في صلاة العيد عدة مرات وتتردَّد على لسان الخطيب في خطبته بعد صلاة العيد.. يتذكر ويذكِّر بها المصلين.

وإلى صلاة العيد الأضحى أشارت الآية الكريمة التي أوردناها آنفاً في قوله تعالى: ﴿ . .وَاذْكُرُوه كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾[1]، إذ كان ضالاً لا يعرف سبب مجيئه إلى الدنيا، والآن بحجّه صار إنساناً يعمل المعروف.

[1] سورة البقرة: الآية (١٩٨).

ذبـــح الــــهــــدي

ثم يذبح الحجاج الأضاحي في منى ومن بعد ذلك يحلقون رؤوسهم لما روي عنه ﷺ أنه رمى ثم ذبح ثم دعا بالحلاق ومن بعد الحلق يحلُّ للحاج كل شيء حظر عليه خلال الإحرام كتقليم الظفر ولبس المخيط من الثياب وغير ذلك إلاَّ النساء ومما يشير إلى ذبح الأضاحي في الحج ما ورد في الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿ . .فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ. . ﴾[1].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُم وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[2].

وتشير كلمة (**فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ**) إلى شاة أو عدة شياه أو بدنة أو بقرة والبدنة هي الجمل أو الناقة.. وكلما كان الهدي أعظم وأغلى ثمناً كانت ثقة النفس بعملها أكبر وكان إقبالها على الله تعالى أكثر وبالتالي كان عطاؤه وتفضله على هذا الإنسان أكبر والناس على درجات.. قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا . . ﴾[3].

إن الله تعالى غنيٌ عن الإنسان وعن عطائه وأضحياته ولكنه يريد له السعادة الكبرى والتقوى "**الاستنارة الدائمية**". قال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوى مِنْكُم. . ﴾[4].

---

[1] سورة البقرة: الآية (١٩٦).

[2] سورة الحج: الآية (٢٩).

[3] سورة الأحقاف: الآية (١٩).

[4] سورة الحج: الآية (٣٧).

ومن أجل هذا جعل الله البدن من شعائر الله، إذ قال تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ. .﴾[1].

أجل إن تلك المناسك لا يعظمها إلا المتقي لأنه لا يشعر ولا يرى فوائدها إلا من اتَّقى. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[2].

وفي ذبح الهدي معونة كبرى وإنعاش لأهل تلك البلاد المقدسة وذلك من الناحية الاقتصادية وإن شئت فقل في تأدية هذا النسك إحياء لأهل تلك البلاد وتشجيع لهم على البقاء في تلك البقعة للقيام بمعونة الحجاج وخدمتهم وفي هذا ما فيه من الإبقاء على فريضة الحج وإقامة هذه العبادة الهامة مدى الدهر.

ألا ترى أن الله تعالى جعل الكعبة في وادٍ غير ذي زرع ليقطع علائق الإنسان من هذه الدنيا بالكلية فإذا شد الرحال إلى هذه الأرض المقدسة لم تكن لهذه النفس من غاية إلا الوصول إلى ذلك الهدف السامي الذي ذكرناه من قبل وبلوغ تلك الدرجة العالية من التقوى والمعرفة.. ولو أن الله تعالى لم يشرع هذا النسك من ذبح الأضاحي أو أننا تصدقنا كما ارتآه أناس بثمن هذا الهدي على الفقراء لكان ذلك سبباً في فقر أهل تلك البلاد وبالتالي سبباً في إقفار تلك البقعة المقدسة من السكان ونفصل ذلك بعض التفصيل من هذه الناحية لتعلم حكمة الله تعالى فيما أمرنا به من مناسك فنقول:

---

[3] سورة الحج: الآية (٣٦). [4] سورة الحج: الآية (٣٢).

إن تجار الأغنام يربُّون الأغنام ويسيمونها في أودية مكة وجبالها ويجلبون الكثير منها إلى تلك الأرض طمعاً في البيع في موسم الحج وبهذا تجد اللحم وكذلك اللبن ومشتقاته من جبن وسمن وزبدٍ موفورة لدى أهل مكة بثمنٍ بخس ويسر وبصورة دائمة خلال العام ولو أننا جارينا من يقول مرتئياً توزيع ثمن الهدي على أهل مكة بدلاً من الذبح مدعياً أن آلافاً مؤلّفة من الأضاحي تذبح في منى ولا يستفيد منها أحد وأن توزيع المال والحالة هذه خير من الذبح.

أقول: إذا نحن أخذنا بهذا الرأي نكون قد قضينا على هذه الفريضة وكنا سبباً في إبطال هذه العبادة الجليلة إذ أطعمنا أهل مكة وجعلناهم في يسر أياماً معدودة وحرمناهم وأفقرناهم عاماً كاملاً فتجار الغنم بسبب عدم الذبح أضحوا لا يوردون أغنامهم إلى تلك المناطق وبذا يظلّ أهل هذه البلد غير ذي الزرع في شقاء وضيق من العيش وحرمان من الرزق ولا نجد لنا إذا شددنا الرحال إليها مأوىً ولا معيناً.

هذا طرف يسير من فائدة هذا النسك وتوضيح للمراد من الأوامر الإلّهية وبيان لحكمة هذا الرب الحكيم في أوامره التي شرعها لهذا الإنسان وإشارة إلى أنه لا يجوز للإنسان أن يشرع أو يأتي بتعليمات تخالف ما رسمه تعالى له في القرآن الكريم وقديماً قال الفقهاء: "**لا اجتهاد فيما ورد فيه النص**".. أي:

نص صريح من القرآن.

أما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[1].

من هذه الزاوية الصغيرة تستطيع أن تدرك أن خروج الناس في عصرنا عن التشريع الإلّهي هو الذي رمى بالبشرية في هذه المآزق الحرجة التي تئن منها الآن وهو الذي وصل بها إلى هذا الشقاء والحياة المعقدة المهددة بالدمار والفناء وما سار امرؤ على رأيه وخالف كلام الله في قضية من القضايا إلاَّ وخسر وشقي ومن يطع الله ورسوله فقد رشد إلى سعادة الدنيا والآخرة وهدي إلى صراط مستقيم. فقوله تعالى: ﴿. .فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ. . ﴾ قرنهما، وهذا أحسن شيء. ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ﴾: عليه أضحية، بعد عرفه يذبح. ﴿فَمَن لَم يَجدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَامٍ فِي الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَمْ يَكُن أَهْلُهُ حَاضِرِي المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾: فأهل مكة ليس عليهم ذبح، لأن الذبح كما أشرنا لأهل مكة ليتوسَّعوا، وعليها لا يجوز تبديل الذبح بالمال لأنه خلاف الآية، ذلك لأن الذبح يساعد التجار على جلب الغنم فيظلُّ أهل مكة في رخاء طوال العام فيتمكَّنوا من خدمة الحجيج. ﴿واتَّقُوا

[1] سورة النساء: الآية (١٤).

اللَّهَ.. ﴾[1] : العبرة للتقوى.

ونتمُّ الآن لك ما يجب أن يفعله الحاج بعد ذبح الهدي في منى فنقول:

[1] سورة البقرة: الآية (١٩٦).

طـــــواف الإفـاضـــــة

إذا انتهى الحاج من الذبح وحلق شعره نزل إلى مكة وطاف بالكعبة سبعاً غير أنه لا يرمل في هذا الطواف. ولعلك إذا عرفت حال الحاج في طوافه الأول وحاله الآن بعد وقوفه بعرفة ووصوله إلى ما وصل إليه من حال رفيع تدرك السبب في اختلاف الطوافين وأقرِّب عليك الخطوة فأقول: حال الحاج في طوافه الأول حال المتذلل بين يدي ربه المقبل بانكسار وضراعة عليه ولذلك تراه يرمل في طوافه ذاك إظهاراً لخضوعه بين يدي خالقه وتسارعه إلى لقاه ورضاه.

أما وقد تفضّل عليه ربه وأناله سُؤْله لذلك تراه لا يرمل في هذه المرة بل يطوف شاكراً فضل الله تبدو عليه السكينة والوقار اغتباطاً بما نال.

ومن ذاق هذه الأحوال عرف سرَّ هذه الأوضاع في كل طواف.. ويسمى هذا الطواف الثاني طواف الإفاضة أو الزيارة وهو ركن من أركان الحج.

وما طواف الإفاضة كما ذكرنا إلاَّ إعلان عن شكر العبد لخالقه، واعتراف بفضله تعالى، وتمسُّح بأعتابه وإشعار للنفس بأن دخولها في حضرة الله ووقوفها في ذلك الجناب العالي أضحى ميسوراً لها في كل وقت وحين من بعد أن أفاض تعالى ما أفاض عليها من العلم والمعرفة وبعد أن رأت ما رأت من

الرحمة الإلّهية وشهدت ما شهدت من الفضل الإلّهي الشامل ففي كل صلاة وإن شئت فقل بمجرد أن يغمض الإنسان جفنه عن هذا العالم وبأقل من لمح البصر تراه يطوي الكون كله ويغدو في حضرة الله ماثلاً بين يديه مشاهداً كماله فانياً في شهود رحمته وحنانه.

التحلل الأكبـــــر

والآن إذا أتم الحاج هذا الطواف الثاني بالكعبة فقد تم حجه وحصل له التحلل الأكبر فيحل له النساء والصيد وجميع ما كان ممنوعاً من محظورات الإحرام.

الـرمـــي وحكـمتـــه

وبعد طواف الإفاضة الذي تحدثنا عنه الآن يرجع الحاج من مكة إلى منى ولا يبيت في مكة ولا في الطريق لأن ذلك هو السنة وعلى الحاج أن يقتفي أثر رسول الله ﷺ في كل نسك من مناسكه إن أراد لنفسه حجاً صحيحاً.

وفي منى يبيت ثلاث ليالٍ مقصراً الرباعية من الصلوات وإليك ما يفعله في هذه الأيام المعدودات:

إنه في اليوم الأول من أيام التشريق وهو ثاني أيام العيد يذهب بعد الزوال وقبل صلاة الظهر لرمي الجمار الثلاث في ثلاثة مواضع يبدأ في الجمرة الأولى وهي التي تلي مسجد الخيف ويرمي عندها وهو مستقبل القبلة سبع حصيات يكبر مع كل حصاة فإذا أتم الحصيات السبع فإنه يقف عند الجمرة ووجهه إلى القبلة فيهلل ويكبر ويحمد الله تعالى ويثني عليه ويصلي على النبي ﷺ ويسأل الله تعالى حوائجه ويدعو طويلاً بقدر قراءة سورة البقرة ثم يأتي الجمرة الوسطى فيفعل مثلما فعل عند الأولى ويرفع يديه بسطاً خلال الدعاء عند الجمرتين، ثم يأتي جمرة العقبة فيفعل مثلما فعل في الجمرتين الأولى والوسطى إلاَّ أنه لا يقف عندها بعد الرمي بل ينصرف منها فوراً إلى رحله فإذا كان اليوم الثاني من أيام التشريق وهو كما نعلم ثالث أيام العيد يرمي

الحاج الجمار الثلاث كما فعل أمس وهو مخير بين الاكتفاء بالرمي في يومين أو البقاء إلى اليوم الثالث من أيام التشريق والقيام بالرمي كما فعل في اليومين السابقين.

أما إذا غربت الشمس فيكره له أن ينفر ليلاً إلى مكة بل يبيت ليلة وفي الغد يرمي الجمار الثلاث ثم ينفر مع الحجيج إلى مكة وفي كلا الحالين سواء نفر إلى مكة ثاني أيام التشريق أو مد الوقوف بمنى إلى اليوم الثالث لا ينفر إلا ومعه ثقله أي متاعه لأن في ذلك تشويشاً لقلبه ورسول الله ﷺ يقول مشرعاً وبفعله دوماً نقتدي إذ يقول بهذا الخصوص: «**المرء مع رحله**»[1].

وقد أشارت الآية الكريمة إلى هذا النسك الذي يقوم به الحاج وأعني به رمي الجمار في أيام التشريق وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[2].

ويتبيَّن لك من خلال هذه الآية الكريمة ما كنا أوضحناه من أنه يجوز الاكتفاء بالرمي في اليومين الأولين كما يجوز مد الرمي إلى اليوم الثالث لكلا الأمرين يحل لكن ذلك مشروط بالتقوى، فمن اتقى فلا إثم عليه في التعجُّل في يومين كما لا إثم عليه في التأخر.

---

[1] لابن سعد في الطبقات الكبرى.

[2] سورة البقرة: الآية (٢٠٣).

أما من لم تحصل له التقوى فما وجَّه الله تعالى له خطاباً في هذا الخصوص ليشعر نفوسنا ويعرفنا بما للتقوى من شأن وليبين لنا أن ثمرة الحج الصحيح هي التقوى وما الرمي كما ذكرنا إلا تعبير النفس المشاهدة بعين البصيرة عما عزمت عليه من معاداة الشيطان وعدم الالتفات لوساوسه، وما السبع حصيات التي يرميها الحاج في الأماكن الثلاثة إلاَّ إشارة لإغلاق أبواب جهنم السبعة ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ..﴾[1].. إذ أن الحاج قد غدا إنساناً بصيراً يرى مداخل الشيطان فلا يستطيع الشيطان الولوج إلى قلبه من إحداها، أما قال ﷺ: «**اتقوا السبع الموبقات**»[2].

أما من حج ولم تحصل له التقوى ولم تستنر نفسه بنور ربه فعلام يعاهد أم علام يرمز في رميه؟. إنه لا يرمز إلى شيء وقلَّد تقليداً أعمى، إذ لم يصل من حجه إلى شيء.

وهكذا فعلى من أراد الذهاب للحج أن يعدَّ نفسه قبل موسم الحج وأن يسلك سبيل التقوى بالإيمان الذاتي من قبل، والحج كما رأينا مدرسة عليا للتقوى لا ينال الشهادة فيها إلا مؤمن ومن يؤمن بالله يهد قلبه. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي

---

[1] سورة الحجر: الآية (٤٤).

[2] رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، رواه أبو داود والنسائي.

جَنَّاتِ النَّعيمِ ۞ دَعْواهُمْ فيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وتَحيَّتُهُمْ فيهَا سَلاَمٌ وآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمينَ﴾[1].

أما وقد أنهى الحاج من رمي الجمار في أيام التشريق ونفر إلى مكة مع الحجيج فعليه أن يأتي الأبطح وهو مكان بين منى ومكة ويسمى أيضاً بالمحصَّب وعليه أن ينزل به ساعة لما روي أن الرسول ﷺ نزل به ومن بعد ذلك يدخل مكة فيطوف طواف الصدر.

[1] سورة يونس: الآية (١٠٩).

طواف الصدر (الوداع)

وهو آخر طواف في الحج ويسمى طواف الوداع يودّع به الحاج البيت الحرام وإن شئت فقل يودع قلبه فيه على الدوام مقبلاً منه على الله بمعية سيّد الأنام.. وطواف الصدر يكون بسبعة أشواط لا رمَلَ فيها فإذا انتهى من الطواف صلى ركعتين ثم يأتي زمزم فيشرب من مائها ويصب على وجهه ورأسه ثم يأتي الملتزم وهو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود فيضع صدره وجبهته عليه ويتشبَّث بأستار الكعبة ويدعو..

وما هذه الأعمال إلاَّ رموز وإشارات فما المقصود من وضع الصدر والجبهة على الملتزم، المُلْتَزَمُ ذاته، وما الغاية من التشبث بأستار الكعبة الأستار ولا الكعبة إنما المقصود الضراعة إلى الله والتشبث بجنابه العالي طلباً لدوام هذا الفضل وعدم انقطاع هذا الحاج عن رسول الله ﷺ الذي به الصلاة الدائمة، أي دوام الاتصال بالله مدى الحياة.

وعند عودة الحاج من حجه ورجوعه إلى بلده يُعبِّر بلسان يلهج بشكر الله وحمده معلناً عما استكنَّ في نفسه من المعاني العالية قائلاً: «**آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده**»[1].

---

[1] صحيح البخاري. صحيح مسلم ٢/٩٨٠.

تلك هي نواحٍ وَلُمَحٌ من حِكَم الأعمال التي يمارسها الحاج في كل نسك من المناسك يدركها ويتحقق بها المؤمن التقي فيعرف فضل الله تعالى عليه ويدرك مكانة الحج وما انطوى عليه من حكم عالية وأسرار رفيعة وتقليب للنفس في مواطن الإقبال وتدرج وعروج بها في معارج القرب من الله وإيراد لها موارد العلم والتحقق بحقائق الشرع والتعرف إلى حكمة الأوامر الإلّهية. ومن ليست له سابقة إيمان صحيح وتقوى فليس يدرك من الحج ومناسكه إلا أقوالاً لا يفقه لها معنى وأعمالاً مبهمة لا يعرف لها حقيقة فإذا ما انتهى من حجّه وعاد إلى بلده عاد إلى ما كان عليه من سوء في المعاملة وانتهاك لمحارم الشريعة وتلك هي حالُ من لم يبْنِ أعماله على تقوى من الله وإيمان. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقوى مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالمِينَ﴾[1].

---

[1] سورة التوبة: الآية (١٠٩).

الأحكام المتعلقة بالمرأة

ومما يتصل بهذا البحث وإن شئت فقل من ضروراته أن نتكلم عن أحكام تتعلق بالمرأة في الحج فنقول:

تختلف المرأة في الحج عن الرجل في أمور منها: أنه لا يجوز لها أن تذهب إلى الحج إذا لم يكن معها زوجها أو أحد المحارم. والمحارم هم الذين لا يجوز لهم نكاحها على التأبيد وهم الأب والابن والأخ والعم والخال وابن الأخ أو الأخت أو الصهر زوج البنت وقد جاء في الحديث الشريف عن الرسول ﷺ أنه قال: «**لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم ولا يدخل عليها رجل إلاَّ ومعها محرم فقال رجل يا رسول الله إني أريد أن أخرج في جيش كذا وكذا وامرأتي تريد الحج فقال اخرج معها**»[1].

وعن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تُسافر المرأةُ ثَلاثَةَ أيام إلاَّ مَعَ ذي مَحْرَم**»[2].

ومما تختلف المرأة فيه عن الرجل الإحرام فقد ورد عن ابن عمر قال: «**إحرام المرأة في وجهها وإحرام الرجل في رأسه**»[3].

ولعلك تقول: كيف يجوز للمرأة أن تكشف وجهها في الحج والنظر إلى

---

(1) صحيح البخاري /كتاب الحج/ ١٧٢٩.

(2) الجامع الصغير /٩٧٧٩/ (حم ق د) عن ابن عمر (صح).

(3) رواه سعيد بن منصور وابن حزم في المحلى ٧٩/٥.

المرأة سبب لزرع الشهوة في القلب؟.

وفي الجواب عن هذا نقول:

كما لا يباح للرجل النظر إلى النساء في غير الحج كذلك لا يجوز له النظر إليهنَّ في الحج بل هو أشد حرمةً لما فيه من الأذى والضرر وتحويل القلب عن الله واشتغاله وانصرافه عن المقصد الأسمى الذي شرع الحج من أجله وإذا كان نص القرآن قد جاء عاماً في عدم إباحة النظر إلى النساء ولم يقيّد ذلك بحال من الأحوال فمن البديهي أن المرأة لا يجوز لها إبداء وجهها في الحج للرجال. وما المراد من جعل إحرام المرأة في وجهها إلاَّ إشعار لها بأن تتباعد عن الأنظار خلال حجّها كل التباعد فلا يراها الرجال ولا ترى الرجال إطلاقاً ولذا جعل مقياس هذا التباعد أن تصبح في جو تجد فيه من الحرية ما يكفل لها كشف الوجه وهكذا فالنساء لا يَطُفن ولا يسعين في الحج مختلطات مع الرجال ولا على مرأى منهم ولكلٍ دوْره في الطواف وإذا ما مرَّ بهن رجل بالطريق للحج فعليهن أن يسدلن نقابهن وإلى ذلك أشارت الأخبار فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «**كان الركبان يمرّون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات فإذا حاذَوا بنا أسدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها فإذا جاوزونا كشفناه**»[1].

---

[1] رواه أبو داوود ج٢ /كتاب المناسك/ باب (٣٤ . ١٨٣٣).

وعن صفية بنت شيبة رضي الله عنها قالت: «**رأيت عائشة طافت بالبيت متنقبة**»[١].. إلى غير ذلك من الأخبار، وطوافها هذا لم يكن في الحج أبداً، إنما في عمرة.

وكما ورد في السيرة الحلبية أن رسول الله ﷺ أقسم على الرجال أن لا يخرج أحدٌ منهم من خيمته فترة طواف النساء طوال الليل حتى شروق الشمس، وما ذلك إلاَّ لفصلهم كلٌّ بوقته.

أمَّا ما نراه اليوم وما نسمع به من عدم تقيُّد النساء بأوامر الشريعة فذلك ناشئ عن جهلهن بتلك الأحكام وذهابهن إلى الحج دون معرفة أو تقيّد بما بينه رسول الله ﷺ.

ومما تختلف فيه المرأة عن الرجل أيضاً أنها لا ترملُ في الطواف بالبيت ولا تهرول في السعي بين الصفا والمروة ومن ذلك أيضاً أنها لا تطوف في حال الحيض حتى تطهر أما بقية المناسك فتؤديها كالمعتاد.

هذه لمحات عن الحج بيّنا فيها طرفاً من أعمال هذه الفريضة الهامة وحكمتها ومن أراد المزيد من الشرح فليرجع إلى المطولات من كتب الفقه ومن أراد الحج الصحيح فلْيستعد له بالإيمان الصحيح.

---

[١] رواه ابن سعد (٨/ ٤٩)

وجـــوب محبتـــه ﷺ

١ـ أثر المثل الأعلى في سلوك الإنسان:

ولعلك تقول: أجدك كلما عرضت لك مناسبة وكلما انفسح أمامك مجال تنتهز الفرصة وتغتنمها لتتكلم عن صلة النفس بنفس رسول الله ﷺ وإنك دوماً لتؤكد وجوب محبته وارتباط النفس به ﷺ تأكيداً يكاد يجعل هذه المحبة وهذا الارتباط فرضاً ضرورياً وأمراً لازماً فهل من آية في القرآن الكريم أم هل من حديث شريف ورد عنه ﷺ يبيِّن ضرورة هذه المحبة وهذا الارتباط أم أنها أذواق تتذوقها وأشواق اعتلجت في نفسك وحلّت بها لا تبرحها فجعلت تتحيَّن الفرص وتوجد المناسبات لتعبِّر عنها وتبثُّها؟. إن كثيراً من الناس في عصرنا قلَّ أن يتعرضوا لهذه الناحية أو يعرفوا شيئاً عنها حتى إنهم ليستغربون منك هذه الأحاديث التي تسوقها بهذا الخصوص استغراباً شديداً فهل من أثارةٍ من علم أم هل من مستند إلى كتاب أو سنة يشير إلى هذه الناحية وينير أمامنا السبيل تجاه هذه النقطة الهامة؟.

وفي الجواب على هذا السؤال وتوضيحاً لهذه الناحية أقول: ما أوصل كثيراً من الناس إلى ما أوصلهم إليه من بُعُد ذريع عن طريق الفضيلة والكمال وما أوقعهم فيما أوقعهم به من تدهور مريع في الدين والأخلاق إلا عدم تقديرهم

وتعظيمهم لرسول الله، إذ من القوانين العامة والسنن الكونية الثابتة التي يؤيِّدها علم النفس وعلم الاجتماع أن فقدان المثل الأعلى يصل بالإنسان حتماً شاء أم أبى إلى هذا التدهور وهذا الانحطاط.

٢ـ شواهد من التاريخ:

وكفاك بالتاريخ في هذا المجال برهاناً واضحاً وشاهداً عدلاً فإنك إذا ذهبت توازن بين بعض الناس في عصرنا وبين أولئك الصحابة الكرام الذين عاصروا وصاحبوا رسول الله ﷺ وإن شئت فقل إذا ذهبت توازن بين أحوال المؤمنين الذين أحبُّوا رسول الله ﷺ وعظَّموه ووقَّروه وما وصلوا إليه من سموٍ في منازل الفضيلة والكمال، وبين المنافقين الذين ابتعدت نفوسهم عن هذا الحب السامي ووقعت في الجفاء والبعد عن الله لتبدَّى لك الفرق جلياً واضحاً ولعرفت عظيم شأن هذه المحبة وضرورتها.

لقد كان الصحابة الكرام أبطالاً وقواداً عظاماً وكانوا علماء حكماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، وكان عصره ﷺ كما وصفه بعض المؤرخين عصر الأبطال، فبمَ سما يا ترى هؤلاء المؤمنون من الرجال؟. أليس ذلك إلا بحبهم العظيم لرسول الله ﷺ حتى قال في ذلك من قال: **ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً**، أما عرَّفنا ﷺ بذلك

القانون النفسي الذي تخضع له نفوس جميع المحبين في الرفقة والصحبة والارتباط، إذ يقول ﷺ: «**المرءُ مع من أحب**»[1].

وإذا كان المرء مع من أحب فهو متصل النفس به مرتبط القلب، وإذا كان رسول الله ﷺ بسبب حبه العظيم لله دوماً مع الله، فكل محب لرسول الله بحسب هذا القانون النفسي الذي قرره ﷺ وبحسب التبعية دوماً مع الله.. فكلَّما ذكرت رسول الله ﷺ الذي هو دائماً مع الله، إن كنت محباً له حقاً صرت مع الله ودخلت نفسك معه في حضرة الله وتلك هي علامة حبك الصادق له ﷺ وما في ذلك من شك أو ريب لأن المرء مع من أحب.

٣ـ أدلة وجوب محبته ﷺ من الكتاب والسنة:

هذا وقد أكَّد لنا تعالى في كتابه الكريم ضرورة محبة رسول الله ﷺ وبين لنا أن محبته ﷺ يجب أن تحتل في نفوسنا المكان الأول بعد محبته تعالى فما الآباء والأبناء، ولا الأزواج والعشيرة والإخوان، وما الأموال والتجارة ولا المساكن الجميلة بأحب إلى نفس المؤمن من الله ورسوله، وجهاد في سبيله. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي

[1] متفق عليه عن ابن مسعود، صحيح البخاري (ج٧ ص١١٣).

سَبيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ واللهُ لاَ يَهدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾[1].

وأشارت السنة النبوية المطهَّرة مُعرِّفة بمعنى هذه الآية الكريمة في حديث ورد عن رسول الله وهو ﷺ أعلم الناس بكلام الله وأفقههم بما انطوى عليه كتابه الكريم، إذ يقول ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[2].

أوليست هذه الآية الكريمة تقرر أن حب رسول الله يجب أن يسمو في نفوسنا فوق كل محبوب حتى من أنفسنا التي بين جنوبنا؟. وهل تراني بعد أن قدَّمت لك ما قدمت من وقائع وحقائق دامغة وآيات كريمة وأحاديث شريفة، هل تراني مُغالياً إذا أكدت لك ضرورة محبة رسول الله ﷺ وقررت أن رابطة المحبة بين النفس المؤمنة وبين نفس رسول الله الزكية الطاهرة فرض لازم وضرورة بالغة، وإذا كان كثير من الناس في عصرنا قد غفلوا عن هذه الناحية الهامة وبذلك بعدوا عن حضرة الله فأصبحوا لا يجدون للصلاة طعماً ولا للإيمان حلاوة ولا للعبادة معنى، أفلا يجب علينا أن نعرفهم بهذا ونرشدهم إليه، وهل من الأمانة أن نسكت عن هذا العلم الشريف السامي ورسول الله ﷺ يقول: «**من كتم علماً عن أهله ألجم يوم القيامة لجاماً من نار**»[3].

---

[1] سورة التوبة: الآية (٢٤).
[2] صحيح البخاري ج١ رقم /١٥/ عن أنس (ر).
[3] الجامع الصغير /٨٩٨٨/ عن ابن مسعود.

ألا يجب علينا أن نبين للناس أن طعم الإيمان وأن حلاوة الإيمان لا يمكن أن يجدها الإنسان إلاَّ إذا كان محباً لرسول الله؟.

أما قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلاَّ لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**»[1].

أما أمرنا تعالى وأمر المؤمنين جميعاً بأن يصلُّوا على رسوله الكريم فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[2].

أوليست هذه الصلاة على النبي إلا صلة نفوسنا بتلك النفس الزكية الطاهرة، أما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ في رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3].

﴿. . فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[4].

أوليست صلوات الرسول وإن شئت فقل هذه الصلات النفسية بنفس رسول الله قربة عند الله؟. وهل يمكن لنفس من الأنفس أن تصلِّي على رسول الله حقيقة الصلاة عليه إذا هي لم تكن محبة لرسول الله ﷺ لأن طبيعة النفس وجِبلَّتها أن تهوي دوماً على ما تحب ومن تهوى، أو معظمة له

---

[1] الجامع الصغير /٣٤١٥/ (حم ق ت ن هـ) عن أنس (صح).

[2] سورة الأحزاب: الآية (٥٦).

[3] سورة التوبة: الآية (٩٩).

[4] سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

وموقرة. وهل المحبة يا ترى ألفاظ تقال وأوصاف توصف وادعاء يدعى، أم أنها أذواق يتذوقها المحب وأحوال تخالط النفس وتلازمها فما يستطيع المحب المشوق انفكاكاً عنه ﷺ ولا تحوُّلاً، بل أن نفسه لتسموا وتتسامى فتعرج بمعيته ﷺ في معارج القدس والطهر والكمال لحضرة القدوس معدن الإحسان والكرم ومن ذاق هذه الأحوال عرف عظيم شأنها ورفيع قيمتها، وما يعرف ما نقول إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

تجد الناس يبحثون عن السعادة ويسعون وراءها فهذا ينشدها في المال يبذل الجهود الطائلة ليستكثر منه ويستزيد ورسول الله ﷺ يقول: «**تعس عبد الدرهم وعبد الدينار**»[1].

فما يزيد عبد الدرهم والدينار ماله إلاَّ تعباً وشقاءً وكلما ازداد وراء جمع المال سعياً ازداد عن السعادة بعداً.. وهذا ينشد السعادة في السلطان والمنصب العالي، وكم مرةٍ هلك عن ذي السلطان سلطانه ولم يتمتع إلا قليلاً بمنصبه فأضحى حزين القلب نادماً وما أصعب العيش بعد فقدان العز إلى المذلة ثم وبالموت يفقد دنياه بأسرها، وذاك ينشدها في الصحة والحياة المترفة وأيام الصحة في الحياة قلَّ أن تبقى وتستمر وتدوم.. وهكذا كل امرئ ينشد السعادة في شيء والحقيقة أن السعادة لا تأتينا مما حولنا أو ما يحيط بنا إنما

[1] جامع الأصول /١٠. ٣٠٣/.

السعادة حال معنوي ينبعث في نفس الإنسان ذاته، وما يفوز بالسعادة حقاً إلاَّ مؤمن بالله محبٌ لرسول الله ﷺ، إذ بهذه المحبة وهذا الارتباط بتلك النفس المقبلة على الله تدخل النفس كما رأينا من قبل على الله، وهل من سعادة تجدها النفس إلا بإقبالها على الله ودخولها في حضرته وأنسها بجنابه؟. وأي شيء أحب إلى النفس من الله وهو خالقها وموجدها؟. وهل من جميل أجمل منه تعالى وهو مبعث الجمال وأصله، وما جمال الكون كله إلاَّ ذرَّة أضفاها تعالى من جماله على هذا الكون فأضحى كل ما تراه فيه جميلاً؟.

وإذا كان الإنسان بدخوله في حضرة الله تعالى يشهد طرفاً من الرحمة الإلٓهية والعطف والرأفة والحنان ويرى أن كل ما تسوقه إليه هذه الذات العليَّة المحبَّة واليد العطوفة الرحيمة إن هو إلا محض فضلٍ وخير وإحسان، أفلا تراه بعد هذه المشاهدة يرضى بكل ما يسوقه الله إليه، وفي الحديث الشريف: «**وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس**»[1].

وإذاً فلا سعادة إلا بالرضا، رضا المحب لحضرة الله بكل ما يسوقه إليه وجميع ما يعامله به ولا يوصلك إلى هذه المنزلة إلاَّ حب الله وحب رسوله.

---

[1] الجامع الصغير /١١٨/ (حم ت هب) عن أبي هريرة.

الطريق الموصلة إلى محبته ﷺ

١ـ قانون ارتباط الأتباع بزعيمهم:

وتسألني عن طريق محبة رسول الله ﷺ وتحب أن تتعرف إلى الأصول التي يوصلك التمسك بها إلى هذه المحبة السامية، وتقول ما من شيء في هذا الكون إلا وله سنةٌ وقانون وأصول وما دامت سعادة الإنسان مرتبطة بمحبة الرسول فما الطريق إليها وما الأصول الواجب اتباعها فأقول:

ما من طريق ولا وسيلة تصل بك إلى حب رسول الله وتقديره إلاَّ إذا انطوت نفسك على قبس من بعض صفاته أو طرف من أخلاقه، إذ من السنن الكونية لهذه النفس الإنسانية ومن القواعد العامة التي أصبحت اليوم معروفة في علم النفس الاجتماعي أنه لا ينشأ الإرتباط النفسي بين الزعيم والأتباع إلا إذا مثَّلهم جميعاً في منازعهم وتفوَّق عليهم في اتجاهاتهم.

فإذا لم يكن كل واحد من الأتباع متخلِّقاً نوعاً ما بخلق من أخلاق قائده وإذا لم تنطوِ نفس التابع على قليل أو كثير من إحدى صفات زعيمه فلا يمكن أن يتولد هذا التقدير ولا أن يحصل هذا الارتباط بالمحبة بين النفسين. وإذا كان هذا الارتباط يتزايد وينمو كلما ازدادت هذه الصفة في التابع ظهوراً وتمكناً وزاد فيها من ذلك الزعيم قرباً ودنواً فلا ريب أن تحقق التابع بأكثر من

صفة واحدة يجعله أكثر لذلك المثل الأعلى تقديراً وأشد به ارتباطاً وحبّاً. هذه قواعد وقوانين لا تختلف ولا تتبدل وكل شيء في هذا الكون إنما يعمل ضمن سنة وقانون ولن تجد لسنة الله تبديلا.

٢ـ أمثلة من التاريخ وسيرة الصحابة الكرام:

وبناءً على ما قدمناه نقول: ما أحب الصحابة الكرام رسول الله ﷺ إلا بما فيهم من صفات الكمال التي اجتمعت جميعها فيه ﷺ ومن كان في صفةٍ من هذه الصفات أكثر نصيباً من غيره كان أكثر لرسول الله تقديراً وتعظيماً وبالتالي كان أكثر حبّاً له ﷺ وأشد به ارتباطاً. وكذلك من فاق غيره بالتحلي بأكثر من صفة واحدة كان له سبقه ودرجته، ولكل منهم في ذلك الحب السامي والارتباط منزلة ولكل منهم درجة.

لقد جمع رسول الله ﷺ الكمالات جميعها وانطوت هذه النفس الكريمة العالية على المحامد كلها وكان اسمه "**محمداً**" فالحياء والمروءة والرأفة والرحمة، والعطف والحنان والشفقة، والعلم والحلم والحكمة، والجرأة والإقدام والشجاعة، والجود والبذل والسخاوة، والعدل والإباء والعفة، وحسن تدبُّر الأمور وجميل التصرف بها والسياسة.. وهكذا عدد ما شئت من صفات القائد الشجاع والبطل المغوار، والسياسي المحنك، والقائد المجرَّب، والعا لم

الفقيه، والسيد الحكيم، والإنسان الرؤوف الرحيم والحاكم النافذ الرأي البصير، إلى غير ذلك من الصفات العالية التي لو تحلّى امرؤٌ بنصيب من إحداها لنال من العظمة والشأن العالي بقدر ما فيه منها. هذه الصفات كلُّها تجمَّعت وتجمع إلى جانبها كل ما يمكن أن يتصف به إنسان من صفات الكمال، كل ذلك تجمَّع في رسول الله ﷺ. وكان في ذلك أسبق مخلوق وأعظم إنسان وبذا استحق ثناء الله تعالى عليه إذ يقول سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] .

وهكذا كل امرئٍ يريد أن يحب رسول الله ﷺ حباً صادقاً وكل من يريد أن يتولد في نفسه التقدير والتعظيم لذلك السيد العظيم ما عليه إلا أن يتحلَّى بصفة من صفات الكمال حتى يتحقق التناسب في الصفة بينه وبين رسول الله ﷺ وهنالك يحبه بنسبة ما نال من صفة عالية، وما سوى ذلك من غير ماصفةٍ إن هو إلا مجرد أقوال، ولا يعرف الفضل إلا ذووه ولا يحب أهل الكمال إلا أهل الكمال.

٣ـ الإيمان الحقيقي هو السبيل الموصلة إلى محبة رسول الله ﷺ:

أما وقد عرفنا هذه النقطة الهامة وهذا المبدأ الأساسي فلابد لنا من أن نجيب

[1] سورة القلم: الآية (٤).

على السؤال الآتي وهو قول من قال: ما دام الحب الحقيقي لرسول الله لا يتولد في أنفسنا إلا إذا اتصفت بصفة من صفات الكمال، فما هي الطريق التي نسلكها حتى نحصل على إحدى هذه الصفات الكاملة أو عدد منها؟.

وفي الجواب على هذا نقول: أصل الكمال ومصدره الأساسي هو الله سبحانه وتعالى. وما من صفة عالية انطبعت في نفس أو حلَّت بها إلا وهي من ذلك الأصل والمصدر العالي وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله الشريف: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمِه وأحبوني لحب الله إياي**»[1].

فتعظيم النِّعم يؤدي لتعظيم المنعم جلَّ وعلا وذلك بالتأمُّل ببدائع الإكرامات الإلٓهية لك في ثنايا الكون ما يجعلك تحب المنعم وتقبل عليه فإذا أنت أقبلت على الله بكلِّيتك واتجهت إليه بقلبك وتوثقت هذه الصلة المعنوية بين النفس وبين خالقها فهنالك ينطبع في نفسك شيء من الكمال وتصطبغ به. قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾[2].

وتتساءل كيف تحصل هذه الوجهة إلى الله تعالى وكيف تتم وهل باستطاعة الإنسان متى شاء أن يتجه ويقبل فأقول: إن هذه الوجهة إلى الله تعالى وهذا الإقبال عليه لا يكون ولا يتم إلا إذا كانت هذه النفس واثقة من إحسانها مطمئنة إلى أن الله تعالى راض عنها بعملها. هذه حقيقة ثابتة

---

[1] أخرجه الترمذي عن ابن عباس.

[2] سورة البقرة: الآية (١٣٨).

وقانون من قوانين النفس لا يتغير ولا يتبدل وما دام الإنسان لا يجد هذه الثقة ولا يشعر بهذه الطمأنينة فليس بمستطيع أن يلتفت إلى خالقه أو يقبل عليه مهما حاول وأراد.

أرأيت إلى الإنسان ذاته يقف للصلاة أحياناً بين يدي ربه فلا يجد لصلاته حلاوة. ولا يشعر فيها بصلة ولا يرى فيها إقبالاً، ويقف أحياناً أخرى فما أن يكبّر تكبيرة الإحرام حتى تسري نفسه عارجةً في معارج القدس بأسرع من لمح البصر حتى إنه قد يشعر بهذه الصلة قبل الصلاة وبعدها وتصلُ به هذه الصلة في حال الصلاة إلى أعلى درجاتها. ويتساءل هذا الإنسان باحثاً عن السبب. فإذا هو في حاله الأول حال انقطاعه عن تلك الصلة قد بدرت منه بادرة سوءٍ أو صدرت منه هفوةٌ لم يكن راضياً عن نفسه فيها، وعلى الرغم من كون ذلك قد صدر منه من غير قصد وسوء نية، لكن خجله من عمله هو الذي حال بينه وبين الوجهة إلى ربه فشلَّ قوة هذه النفس وحجبها عن خالقها فإذا هي في جفاء البعد وإذا هي في حالٍ من عدم الإقبال لا ينفك عنها ما دامت خجلى من عملها إلاّ أن تخرج من هذا الحال بعمل طيب تقوم به وفي الحديث الشريف: «**وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُها**»[1].

وإذا هو في حاله الثاني حال الإقبال على الله قد أدَّى خدمةً طيبة أو قام

[1] رواه الترمذي في سننه في كتاب البحر /٥٥/.

بعمل صالح فإذا للنفس من ثقتها برضاء الله عنها ما جعلها في قرب وصلةٍ وإقبال. وتسألني عن السبيل الذي يدفع بالإنسان إلى العمل الصالح ويحجزه عن الوقوع في السيئات فأقول: لقد قرن القرآن الكريم العمل الصالح في مواضع شتى وفي عدد كبير من الآيات بالإيمان لنعلم أن الإيمان هو سبيل الصالح من الأعمال وهو السبيل والسبب الوحيد لاجتناب السيئات. فليس يصلح عمل الإنسان وهو لا يستطيع اجتناب السيئات إلاَّ إذا وصل إلى الإيمان.

وهكذا فالإيمان الحقيقي هو النقطة الأولى التي يكون منها الانطلاق وهو وحده الموصل إلى الاستقامة والبعد عن الوقوع في المعاصي والموبقات وبالتالي هو الآخذ بيد هذه النفس إلى الصلاة الحقيقية المنطوية على الصلة بالله تعالى حيث تستقي النفس الكمال وتصطبغ به وتتحلى بكريم الصفات وهنالك تجدها تحب رسول الله ﷺ وترافقه بلا انقطاع.

لعلك تقول: ذكرت من قبل أن أصحاب رسول الله ﷺ لم تسمُ نفوسهم ذلك السمو العالي، ولم تبلغ منازل الكمال الرفيعة إلاَّ بسبب حبهم لرسول الله ﷺ. فلما أردت بيان الطريق إلى محبة الرسول ﷺ قلت لا يستطيع الإنسان أن يحب رسول الله حبّاً حقيقياً إلا إذا كانت نفسه متحلِّية بنصيب من صفات الكمال، فهل الكمال النفسي يا ترى هو الذي يصل بالإنسان إلى محبة رسول الله أم أن محبة رسول الله هي التي تسمو بالنفس إلى منبع

الكمال وفي الجواب عن هذا نقول:

إذا كان القارئ يظن أن بين القولين اختلافاً وتناقضاً فليس بينهما شيء من ذلك أصلاً فأنت لا تستطيع أن تحب رسول الله ﷺ إلاَّ إذا استقيت من الله تعالى بصلاتك المبنية على استقامتك وإيمانك طرفاً من صفة من صفات الكمال فإذا أنت وصلت إلى محبَّته ﷺ واستغرقت نفسك في هذه المحبة فعندئذٍ تتدرج في الكمال إلى أسمى المنازل وتبلغ فيه أعلى المراتب إذ تدخل بصحبته ﷺ فتشرب من ذلك المنبع العالي والبحر اللامتناهي، وتعالى الله عن كل مثال، شرباً متواصلاً وتسمو نفسك سمواً كبيراً وتصل إلى حالٍ ما كنت لتصل إليه في يومٍ من الأيام أو تصبح من أولئك الرجال لولا توسلك بمعيته ﷺ واستشفاعك به إلى الله تعالى. تلك هي ثمرة محبة رسول الله ﷺ وذلك بعض ما نفهمه من حث الله تعالى إيانا على محبة رسوله الكريم وأمرنا في محكم كتابه بالصلاة عليه، وما هذه الصلاة على رسول الله ﷺ إلا صلة النفوس المؤمنة به لتدخل بمعيته على الله فتستقي منه تعالى كمالاً وترتقي في هذا الكمال من حالٍ إلى حال أعلى، رقياً لا يتناهى.

زيـــارة الـرسـول ﷺ

١ـ حـكـم زيارتـــه ﷺ:

من السنن المؤكدة قصد المدينة المنورة مهاجر الحبيب الأعظم سيدنا محمد ﷺ لمشاهدة الروضة المطهَّرة التي هي روضة من رياض الجنة وزيارة سيد الخلق المبعوث رحمة للعالمين ولكافة الناس بشيراً ونذيراً لقوله ﷺ : «**مَن حج البيت ولم يزرني فقد جفاني**»[1].

وفي حديث آخر «**من وجد سَعَة ولم يفد إليَّ فقد جفاني**»[2].

إن هذه الزيارة للسيد الأعظم ﷺ بعد مماته كزيارته في حياته فقد ورد عنه ﷺ: «**من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي**»[3].

"وحياتي خير لكم ومماتي خير لكم" لأن وظيفته القلبية دائمية أبدية ﷺ.

٢ـ أدب الـزيـــارة:

وينبغي لمن أراد زيارة الرسول ﷺ أن يكثر من الصلاة والسلام عليه في مسيره إلى تلك الزيارة الشريفة فإذا لاحَ له حرم المدينة المنورة وبدت له أشجارها أكثرَ من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ. فإذا شارف المدينة

---

(١) رواه الدارقطني.

(٢) أخرجه ابن عدي والدارقطني في غرائب مالك وابن حيان.

(٣) رواه الدارقطني وغيره.

فعليه أن يدخلها ماشياً إن أمكن ثم يغتسل ويتنظف ويلبس أحسن الثياب ويتطيَّب ظاهراً، حتى إذا بلغ المسجد النبوي فعل ما يفعله المرء حين يريد الدخول على العظماء فوقف قليلاً كالمستأذن ليهيء نفسه لذلك المقام ويحضِّر قلبه، وعند دخوله المسجد النبوي الشريف يقصد الروضة المطهرة وهي ما بين قبره ﷺ ومنبره فيصلي ركعتين تحية المسجد النبوي بجانب المنبر والأوْلى أن تكون في المحل الذي كان يصلِّي فيه رسول الله ﷺ ثم يدعو بما يشاء معدّاً نفسه للمثول بين يدي رسول الله ﷺ إعداداً قلبياً ثم ينهض للزيارة.

٣ـ فائدة الزيارة وغايتها:

ترى لماذا حث رسول الله ﷺ على هذه الزيارة وما هو المقصود منها أم ماذا يجد الإنسان في زيارته وماذا يجنيه من الخير؟.

وفي الجواب على هذا نقول: للإنسان نفس وروح وجسد، فالروح هي ذلك النور الإلَهي الساري في الجسد والذي بسببه تقوم الحياة فينمو ويتحرك ويباشر الأعمال. أما النفس فهي ذات الإنسان المعنوية الشاعرة مستقرها في الصدر. وأشعتها سارية بالأعصاب في جميع أنحاء الجسم وهي العنصر الأساسي في هذا الإنسان فهي التي تغضب وترضى، وهي التي تخاف وتخشى، وهي التي تسر وتفرح، وتتنعَّم وتتألَّم وتحب وتكره، وهي التي توصف بالكفر والإيمان،

وهي التي تُجزى وتُحاسب على الأعمال، وهي التي ترقى وتترقى مُتنقِّلة في محبة الله تعالى من حال إلى حال أعلى، وكلما ازدادت النفس تقديراً لخالقها زادت إقبالاً عليه سبحانه وبالتالي اكتسبت منه سمواً ورفعةً وكمالاً. وهي عنصر نوراني لا يصيبه البلى ولا تمتد إليه يد الفناء. وما الجسد إلاَّ ثوب النفس ولباسها فهو الحامل لها وبواسطته تباشر أعمالها، وعن طريق الحواس تتعرَّف إلى ما حولها فإذا ما فارقت الروح الجسد ومات هذا الإنسان لبست النفس الحال الذي كانت وصلت إليه في الحياة الدنيا ورافقت إمامها في الكعبة إلى الحضرة الإلّهية، والكعبة هي مركز انبثاق أشعة النفس ومصدر لسريان نورها كالشمس جرمها في السماء وأشعتها سارية في كل ناحية من أنحاء المعمورة تملؤها بالنور والضياء، وما هذا إلاَّ مثال يقرب لك الحقيقة والنفس المؤمنة أسمى بكثير وأرفع مما يمكن أن يتصوره إنسان فحالها بعد الوفاة لا يختلف عن حالها بالدنيا من حيث الإقبال على الله بل إنها ترقى في هذا الإقبال لحظة فلحظة وآناً بعد آن. ونفس المؤمن التقي وبالطبع كل نبي عند الموت تنزع ثوبها الجسدي للقبر وتُحَلِّق بجنات ربها ومركز انبثاقها إنما يتم من الكعبة "**شرّفها الله برسله الكرام وبالأبرار**" وشعاع من نور هذه النفس يشرف على جسدها الذي كان مطية أعمالها الطيبة العلية في دنياها فهو للذكر والتذكُّر فقط لا مفعولية له عندها، بل السيطرة غدت بالكلية للنفس هذا ولا ترافق النفس جسدها بالقبر إلا

النفس المعرضة الكافرة لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۞ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۞ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾[1].

وهكذا إذا أنت ذهبت لزيارة الرسول ووقفت أمام مقامه الشريف تسلم عليه فنفسه ﷺ تشاهدك من الكعبة ومن جناتها العلية. وتراك وتسمع سلامك، وإن كنت مؤمناً حقاً وممن وصل إلى حال نفسي رفيع استطعت أن تعاين ذلك وتسمع منه ﷺ نفسياً ردَّ السلام عليك بعد قدوم نفسه الشريفة الطاهرة للقاء من اشتاق لرؤياها "ومن طلبك وجب عليك تلبيته".

ولذا إذا دنوت من مقامه ﷺ فقف بعيداً عنه بقدر أربعة أذرع مقابلاً رأس النبي ﷺ ووجهه الأكرم متأدباً غاية الأدب خاشعاً وقل بصوت خافت: "**السلام عليك يا سيدي يا رسول الله، السلام عليك يا سيدي يا حبيب الله، السلام عليك يا أشرف رسل الله، السلام عليك يا سيد المرسلين، السلام عليك يا خاتم النبيين، السلام عليك وعلى أهل بيتك الطيبين الطاهرين صلى الله عليك وعلى آلك وأصحابك وأزواجك وذريتك وسلم تسليماً**".

جزاك الله عنّا وعن أمتك خيراً فلقد بلّغت الرسالة وأدّيت الأمانة وأوضحت الحجة وكشفت الغُمَّة، ونصحت العباد، وجاهدت في سبيل الله

[1] سورة المدثر: الآية (٣٨-٤٠).

حق الجهاد، وقد يغلب عليك أثناء الزيارة الحال النفسي من حيث صلة نفسك بنفس رسول الله ﷺ ويتعطل اللسان عن الكلام ويختلط شعاع هذه النفس الزائرة بنفس رسول الله ﷺ الزكية الطاهرة فتقبل بمعيتها على الله وتعرج بصحبتها في معارج القدس الرفيعة وتحصل لها الرفقة الحقيقية والشفاعة وتغدو نفسك مع نفسه ﷺ واقفة في حضرة الله فانية في شهود كمال الله فغدت النفسين نفس واحدة وتلك هي حال من أحوال الشفاعة الدنيوية التي ما فاز بها مؤمن إلاَّ وغدا إنساناً إنسانياً ومؤمناً كريماً وعالماً حكيماً وإلى هذه الشفاعة، وإن شئت فقل إلى هذه الرفقة والصحبة المعنوية في إقبال النفسين معاً على الله خلال هذه الزيارة الشريفة، أشار ﷺ بقوله: «**من زار قبري وجبت له شفاعتي**»[1].

فهذه شفاعة صحبة ورفقة في الإقبال بمعيته ﷺ على الله والائتمام به في الوجهة إلى الله، تبدأ بك منذ زيارته هذه وتمتد بك حتى آخر لحظة من لحظاتك في هذه الحياة بل تلازمك ولا تفارقك إلى ما بعد الوفاة فما تزال نفسك مرافقة مصاحبة تلك النفس السامية حتى تقف للحساب بين يدي الله. قال تعالى: ﴿. .يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

---

[1] الدارقطني ج٢ / ص٢٧٨.

[2] سورة التحريم: الآية (٨).

تلك هي الغاية من زيارتك لرسول الله ﷺ وفي الحقيقة لا يعرف قدر هذه الزيارة إلاَّ امرؤٌ آمن بالله حق الإيمان. يتوّج حجَّه بتلك الزيارة العالية ويسمو بنفسه إلى منازل المؤمنين الصادقين.

وعندما يريد الزائر العودة إلى بلده يودِّع المسجد النبوي الشريف بركعتين ثم يسلِّم على رسول الله ﷺ بما يحضره من الكلمات التي تقدمت في الزيارة فإذا ما أتمَّ زيارته وغدت نفسه مرافقة لرسول الله ﷺ فانية في محبته ﷺ مصلِّية عليه حقيقة الصلاة متشفعة بتلك النفس الزكية الطاهرة مقبلة بمعيتها على الله فعندئذٍ ينصرف إلى بلده وقد فاز بأحسن غنيمة وعرف المراد من حث رسول الله ﷺ على هذه الزيارة الشريفة.

والحمد لله الذي عرَّفنا هذا.. وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله..



خَامِسُ المَدَارِسِ العُلْيَا لِلتَّقوى

تعفو الرياح على آثار القوافل في الصحراء فتمحوها ، و يعفو البعد عن كتاب الله حقائق خالدةً في مناسك الحج السامية و قلائده العليّة .

قال تعالى :(الحَجُّ أَشْهُرٌ معلُومَاتٌ) و غدا الآن أياماً معدودات فَلِمَ ؟ ! ....

لم أضحت المناسك و أركان الحج طقوساً غريبة لا مفهوم لها حتى تكاد أن تكون أساطير مروية .

الآن أرسل الرحيمُ إلهنا العلَّامةَ العليم محمد أمين شيخو قدَّس الله سِرَّه فكشف اللثام بالحجة و البيان عن طيب عنصر المناسك و الأركان بالنور بالقرآن فأحال دياجير الظُلَم إلى بدائع الأنوار و الطقوس الصم لتنطق بحكمٍ دُرِّية لتسمو بالحجيج بصدق و شوق إلى لقاء الحبيب جلّت حكمته ، إذ هو منبع الأسرار ، فالبصيرة تتم بالنور الإلهي أساس الدعوة المحمدية للأهداف العليّة بأركان الحج و مناسكه و قلائده السرمدية .

ختام المسك المحمدي

الناشر

